غريب عسقلاني

يوميات الحرب والموت
غزة تحترق

سيرة روائية



يوميات الحرب والموت

غزة تحترق

مؤسسة سندباد للنشر والإعلام

مؤسسة ثقافية تطرح مشروعًا ثقافيًا جادًا على اعتبار أن الثقافة رسالة، من خلال تبني الإبداعات التجريبية الطموحة وتقديمها دون قيد أو شرط، مع احترام حرية التعبير، وتقديم المواهب المتميزة للحركة الأدبية، ونشر الإبداع الجيد، والتعريف بالكاتب عبر وسائل الاتصال المختلفة، والدعاية الجادة للمنتج الأدبي.

الكتاب: يوميات الحرب والموت .. غزة تحترق ــ سيرة روائية

الكاتب: غريب عسقلانى ــ غزة/ فلسطين

لوحة الغلاف للفنان: أحمد طه

الطبعة الأولى: ٢٠١٠

الناشر: سندباد للنشر والإعلام بالقاهرة

مدير النشر: خليل الجيزاوى

الموقع: http://sendbad.net.ms/

المراسلة: khalilelgezawy@yahoo.com

للتواصل ت: ٠١٠٥٨٧٠٥١٤ ٠٠٢+

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٧٠٩٧

الترقيم الدولي: ٥ ــ ٧٩ ــ ٥٩٦٦ ــ I.S.B.N:٩٧٧

غريب عسقلاني

يوميات الحرب والموت

غزة تحترق

سيرة روائية

سندباد للنشر والإعلام
القاهرة ٢٠١٠

ما يشبه التقديم

فاصلة الالتباس

آه يا غزة..

هل أخذتك الضربة إلى جُرف الذهول!؟

آه يا سيدة البلاد!.. كم يعذبك الالتباس، عند فاصلة أوقفت ضوء الحياة في عتمة الموت.. فاصلة غافلت الناس ودخلت في المحرم.. "اقتتال/ حسم/ انقلاب.." لا تهم التسمية، وقد انشطر المشطور، ولم تعد رام الله على بعد خطوة من الأقصى، ولا لامست غزة أعناب النقب.. تاهت الأجندة يا غزة بين المُسبب والسبب..

والأجندة ابنة البارحة، طازجة لم ترقد بعد تحت متواليات السنين.. هل ما زلتِ يا غزة تذكرين؟ أم هو النزف حزك من الوريد إلى الوريد، فسقطتِ في جب الذهول..

آه يا سيدة البلاد يا أم الصابرين على البلايا..

يا شاهدة على التباس الوقت، وراصدة للذهول..

يا رافضة كل من مارس اللعب في سوق البشاعة، من تجار وشطار وعيّار، ومن طلاب شفاعة بعد اقتراف المعصية..

الدفتر الأول

حكايات عن براعم الأيام

رسائل الأطفال الرجال إلى براعم الورد

حكايات



١ ـ مشوار

خرج الخيط الأبيض من بطن الخيط الأسود، وزوادته على كتفه، وكان مُجبرًا أمام حاجة الأسرة وحاجات أُخر..

عند أحد المنعطفات أوقفه الجنود، رفع يديه.. فتشوه، وجدوا رغيفين وحبة بندورة وقرن فلفل وبصلة، وحفنة ملح.. جف ريقه وتمتم لنفسه: "هل اعتادوا على غداء السلطة" سلبوه هويته، أمره أحدهم بالعربية:

ــ اطفِ الإطارات وانتظر حتى نرجع.

بحث عن الماء، استعان بتراب الطريق، خمدت النار، فخرجت عليه سرية الأطفال:

ــ اشعل النار.

سكبوا بعض البترول على الإطار، فاحت رائحة بخار الكيروسين، اعتصموا بالأزقة. أشعل عود الكبريت.. هبت النار، وتداخلت دوائر اللهب في بطن الإطار، وتلوت ثعابين الدخان، فانشقت الأرض عن سيارة عسكرية أخرى، وفرقع الرصاص:

ــ لا تتحرك.

ركلوه.. نفر الدم من مسامات وجهه، تورمت عينه، لكنه ضحك في سره، وأمام المحقق شهد الجنود أنه من أشعل النار،

لم ينف التهمة.. سأله المحقق:

ـ لماذا أشعلت النار؟

ـ ....

ـ أنت حماس؟..أنت قيادة؟.. أنت جهاد؟

لم يرد، ركلوه بقسوة، عصبوا عينيه، قيدوه وألبسوه كيس الخيش، حز القيد لحم معصميه.. صوت المحقق غاضبًا وقد نفد صبره:

ـ من الذي أمرك بإشعال الإطار؟

رد بثقة:

ـ الأطفال.

لحس الدم النازف من جروحه.

وتذكر شكوى زوجته من نفاد الكبريت، والكيروسين من البيت وألح عليه طفله أن يقفز في الحارة حافيا..

٣ . الكرسي

انتصب المعلم الشاب شامخاً، تلعثم المدير وخرج صوته ميتاً:

ـ الحمد الله على السلامة، متى خرجت؟!

ـ أريد العودة للعمل.

ـ قدم طلباً بذلكَ.

ضحك المعلم، توتر المدير قال:

ـ القانون.

كز المعلم وخرج صوته غضوباً.

ـ أخذوني دون تهمة، دون محاكمة.. توقيف إداري.. هل تعرف قانون الإداري.

وقذف في وجهه ورقة الصليب الأحمر.. قال المدير:

ـ ماذا أستطيع فعله لكَ..؟!

ضغط المعلم على مخارج الحروف يضع حدًا للمراوغة:

ـ اسأل الأطفال، ألم تصلك رسائلهم!!

وأشار إلى الكرسي.

عقلة أصبع أصبح المدير، تهتز به الإسفنجة المنتفخة في قاعدة الكرسي، تأرجح وتوسل:

ـ قدم الطلب عسى أن يكون خيرًا.

خرج المعلم.. زفر المدير.. فك ربطة عنقه.. لـــم يــستوعب الهواء.. تمشى حول الكرسي.. لهث ولم يستوعب محـــيط الـــدائرة، كانت بؤرة المركز بعيدة.. تساءل:

" هل كانت دورة الأطفال بهذه السرعة"..؟!

وتذكر درساً حضره في أحد المـــدارس عـــن قـــوة الطـــرد المركزي. وفي البيت رأى حفيده يصعد إلى كرسيه الصغير بـــدون عناء.. داعب الطفل:

ـ أعطني الكرسي أجلس عليه.

تساءل الصغير:

ـ هل بعت الكرسي الكبير يا جدي...؟!

بهت الرجل ....

فيما جلس الصغير على كرسيه وأخرج لسانه لجده..

٣ ـ ملاحظات في دفتر أنيق

عندما حاصر الجنودُ المدرسةَ، كان ممثل الصليب الأحمر في زيارة تفقدية للمدارس، فاحتمى في غرفة الناظرة وافتقد آلة التصوير.. عطس مع هبة المسيل للدموع، واندلقت دموعه، فزودته الناظرة بقطنة مبللة بماء الكولونيا..

تصاعد الهياج وتبخر ماء الكولونيا ولم تُجدِ القطنة، فهرست أم محمد البوابة فحل بصل وسدت منخريه.

امتعض من بربريتها ولكنه سرعان ما نظر إليها بامتنان.. فرقع الرصاص وحملت الطالبات صبيًا في العاشرة أصيب في بطنه، استدعت الناظرة سيارة الإسعاف فيما انهمكت معلمة الألعاب بتضميد الجرح وعمل الإسعافات الأولية.

تشنج الصبي تلوى ونفض ساقيه، فسقطت الحجارة من جيوبه.. فتح ممثل الصليب الأحمر دفتره الأنيق وسجل ملاحظة ولم ينظر صوب الطفل.

أوقف الجنود سيارة الإسعاف؛ ليمنعوها من الوصول، هزته معلمة اللغة الانجليزية:

ـ إنهم يقتلون الصبي..!!

عاد إلى دفتره الأنيق، وسجل ملاحظة أخرى، فانفجرت أم محمد في وجهه:

يلعن أبوك.....

ونتشت الدفتر وطوحت به بعيدًا في فناء المدرسة..

الغريب أن أحدًا من التلاميذ لم يلتقط الدفتر، وأن السيدة الناظرة لم تسأل أم محمد في تصرفها مع صاحب الدفتر الأنيق، وأن الصبي بقي يحدق فيهم رغم الشحوب الذي زحف إلى عينيه.

٤ . بعيداً عن السياسة

سرت إشاعة عن تسمم مياه الشرب.. لم تنطلِ الشائعة على أحد ولم تشغل سكان المخيم.

قال مساعد الحاكم العسكري لوجهاء ومخاتير مخيم الشاطئ في اجتماع طارئ:

ـ أنا لا أُريد الحديث في السياسة.. أنا طلبت الاجتماع بكم حتى أبحث معكم مشكلات المخيم.

صمت المخاتير والوجهاء، ولم يهزوا رؤوسهم كالعادة، وسرب أبو العبد حبات المسبحة من بين أصابعه، فأحدثت نقرات متتالية، فتح القناة المعتادة بين الأذن اليمنى واليسرى وتظاهر بمتابعة الحديث قال مساعد الحاكم:

ـ الناس يتحرشون بالجيش...!

ـ لابد أن تعرفوا أن الجيش مش لعبة .. الجيش يدافع عن نفسه .. يطلق النار.. يُصاب ناس يموت ناس، والخسارة دائما فيكم.

توقفت حبات المسبحة بين أصابع أبي العبد، وتبادل النظرات مع المخاتير، وتظاهر بالاستماع، واصل مساعد الحاكم العسكري:

ـ ربوا أولادكم..

زفر الوجهاء والمخاتير.. مصوا سجائرهم .. جفت حلوقهم ولم يطلبوا ماءً.

ـ وحتى أتصل بكم طلبت إعادة التليفونات المقطوعة عنكم.

تمتم أبو العبد "خليها مقطوعة أحسن" فقطع الطريق على أحدهم، هم بالحديث.. سأل مساعد الحاكم أبا العبد:

ـ ما رأيك يا مختار؟

ـ في ماذا؟

ـ في الكلام الذي قلته.

سد أبو العبد القناة الموصلة بين الأذن اليمنى والأذن اليسرى، وتشبث بحبات المسبحة.. قال:

ـ هذه قصة يعرفها الناس في المخيم.. اسمع أيها الحاكم، حل ضيف على رجل، فوضع المضيف أمام ضيفه الطعام وسلة خبز، وقبل أن يمد الضيف يده للطعام، قال المضيف: "رغيف صحيح لا تكسر، ورغيف مكسور لا تأكل، وكل حتى تشبع"

كركر الوجهاء والمخاتير، فاستشاط مساعد الحاكم:

ـ من الضيف، ومن المضيف يا مختار؟

ـ هذا كلام في السياسة، وأنتَ لا تريد..

وانفض الجمع..

٥ ـ درس في الأفعال

كان الصبح نديًا رغم سحب الدخان في أزقة المخـيم، وفـي المدرسة تجاوز الأطفال متون الأيام.. قالت المعلمة:

ــ ضع الفعل الماضي في جملة مفيدة.

قال حسام:

ــ نزح أهلي من مدينة المجدل.

وغضبت رانية:

ــ قتل الجنود خالي محمود.

وعبس سعيد:

ــ جرح "المشمار كفول" صديقي أسعد.

تجاوزت المعلمة أحزانها.. ضغط خاتم الخطبة على أصـبعها، واشتاقت للمسة أصابع حنون .. قالت:

ضع الفعل المضارع في جملة مفيدة:

قالت صفاء تتباهى:

ــ تطرز أمي الأعلام كل يوم.

وقال خليل باعتزاز:

ــ نقيم المتاريس في الأزقة.

وقال شوقي وقد اطمأن على البصلة في جيبه:

ــ نشم الغاز المسيل للدموع.

تحشرج صوت المعلمة، وانفلتت دمعة فشلت في حصارها، ومَضَ في صدرها شاب صادروه تحت جنح الظلام، وأدعوه سجن النقب، ولا يزال يحلم كثيرا ويقبل عينيها من وراء الشباك كل زيارة.. سألت:

ــ استخدم فعل الأمر في جملة مفيدة.

لوح مجدي:

ــ ارجموا الجنود.

وتميز صوت سامر:

ــ اشعلوا الإطارات.

وتجاوزت هيفاء لثغة لسانها:

ــ غنوا يا أطفال.

صدر المعلمة يتسع.. يزهر حنانا.. نظرت إلى أفق الدنيا، واسترسلت مع أشعة الصباح، وامتطت أشعة الدخان.. سكنتها عيون الأطفال.. حلمت دون نوم، رأت فارسها يعتلي أعمدة الغضب، سيفه خيوط الشمس، فاشتاقت لموعد الزيارة.

ميز الأطفال صوت سيارة عسكرية، فاندفعوا إلى بوابة المدرسة، كوروا قبضاتهم الطرية، وباعدوا بين السبابة والوسطى وغنوا بثقة .....

٦ ـ الغفوة

سقط الشهيد..

ومضى به الشباب قبل أن يصادر الجيش الجثة.. رشت الصبايا عطرًا غزيرًا، وتحلق الأطفال يمتشقون الحجارة، وسارت الجنازة في أزقة المخيم المحاصر.

لا إله إلا الله.. الشهيد حبيب الله...

منافذ المخيم المؤدية إلى المقبرة محاصرة .. قرر الشباب الوصول إلى المقبرة، فكرامة الميت دفنه .. تميز الضابط حقداً، وانصرع الجنود، وكان الالتحام.. تشبث خالد بنعش رفيقه.. ترنح ووقع على الأرض كتلة هامدة بجوار جثة الشهيد التي اندلقت من النعش على الأرض.. قالت صبية شرقت بدموعها:

ـ تناوبوا بالهراوات على مؤخرة رأسه.

تمدد سبعين يوما يحدق في الناس.. يعرفهم أو لا يعرفهم لا أحد يجزم، حتى أن الطبيب وقف حائرًا، وأصبح خالدًا حكاية في المخيم وحكاية في المستشفى حتى أفاق .. قالت أمه التي لم تفارقه منذ وقع:

ـ صرخ فجأة، لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله.. وبكى طويلاً لأنه لم يودع رفيقه وحبيبه.

وعندما استوعب المكان حدق في المرضى من حوله وعاتب أمه:

ـ لماذا تركتموني؟ في الغفوة زارتني كوابيس شريرة.

حدثت أمه النساء في المخيم قالت:

ـ تركتُه وانطلقتُ إلى الطبيب أزغرد

تمتمت عجوز تبحث عن ولد مفقود " سبحان الله "

٧ ـ البكر

سقطت قنبلة الغاز في حوش الدار، وحوش الدار بمساحة حصيرة لا يزيد، انضغط الهواء.. تلوى غابة ثعابين.. زحفت إلى حجرة حسنية وتسربت خلال مساحات جسدها الطري، ترنحت العروس.. قذفت ما في جوفها.. دارت.. انخبطت بالأرض، وسال من بين فخذيها سائل أصفر.. رفرفت مثل عصفور ذبيح شهقت حماتها.. ضربت على صدرها، ولولت:

ـ إنه الإجهاض.

رجعوا بحسنية من المستشفى، ورجع عادل من العمل، تمددا يحدقان في فضاء الحجرة، مرّ براحته على جلد بطنها، هبط تكور عزيز عليه، ابتسم في العتمة، ومسح دمعة برقت على خدها، هدهدها مثل طفل، وراحت أصابعه تتفقد تضاريسها.. كانت ترتجف.. همس:

ـ نحن في البداية والبطن بستان.

ـ قطفوا زهرتنا البكر يا عادل.

ـ يرحمه الله.

أجهشت ودفنت رأسها في الوسادة فيما حدق هو في وجه العتمة يطارد قمراً توارى خلف النجوم..

٨ـ العين

سرحت شعره الذهبي، غارت عليه من خيوط الشمس، غسلت يديه وقدميه بماء الورد، توردت وجنتاه، قبلته فغرغر ضاحكاً، قضمت أصابعه بوله، عرفت فيه العشق وخافت من الحسد وتذكرت قول أمها "لا يحسد الصبي إلا أهله" بصقت تطرد الشيطان، ولهجت بسورة الفلق وخشعت لله، ومضت به تطعمه ضد شلل الأطفال.

وفي الطريق إلي المستوصف، مرت سيارة الجنود، فانطلقت الحجارة، وانطلق الرصاص، وانطلقت تعدو..

حوّمت رصاصة في الهواء .. دارت دورتها .. بكت الشمس وتلونت ضفائرها بلون الدم، وضاعت عين الصغير .. تبخرت رائحة ماء الورد، ورقص الشيطان مزهواً في حافلة الجنود .. وفي مستشفى هداسا سأل الطبيب اليهودي غاضباً.

ــ كيف..

ــ الجنود.

قذف معذبًا: اللعنة.

في غرفة العمليات. انتهى الطبيب من حشو كهف العين بالقطن وهمس لمساعده:

ــ السياسة تنظر للأشياء بعيون زجاجية..

٩ـ استقالة

نجح في الثانوية العامة فزغردت أمه ووزعت بـاكو سـلفانا "شيكولاتة" على الحبايب والجيران.. وعندما دخل مدرسة الـشرطة احتارت أمه، تفرح أو تحزن؛ فهي لا تحب الحكومة:

"طريق الحكومة شوك"

أصبح الولد شرطي مرور، واحتارت في أمر الدفتر الـسميك الذي يخرج به كل يوم ويرجع به وقد ضمرت أوراقه.. سألته:

ــ هل عدت للقراءة من جديد يا ولد؟

ــ هذا دفتر مخالفات يا عجوز.. ابنكِ يوقف أكبر شـنب فـي البلد عند حده، ويلطعه مخالفة على كيفك.

والكيف، أن تخاف عليه، فالولد نمرود ونظره أطول من قامته والحكومة غدارة ..

سكنتها النخوة وكانت واثقة "ما يلم اللحم إلا أصحابه والبنـت استوت" وعجلت في زواجه من ابنة عمه وقالت تقنع نفسها "يخلـف ولد ويعرف معنى الرحمة، فيرحم أولاد العباد"

وعندما تبدلت الأحوال، وسرحت في الشوارع أقدام لم تنبـت شواربها، ظهرت حواجز ومتاريس، فرضت على الـشارع حـالات

جديدة أصبح معها دفتر المخالفات عبئاً ثقيلاً، وبات ظهور الدفتر مخالفة وسرايا الأطفال في كل مكان..

وضع الحذاء والدفتر والبدلة أمام الضابط ولم يؤد التحية.. خرج يملأ صدره هواء جديدا ودار في الأزقة يكتشف الأطفال..

وعندما رجع إلى البيت سألته:

ــ وبعد؟

احتضن طفله وقال:

ــ أبحث عن عمل يا حاجة.

شلحت زوجته الحلق، وملصت معصمها من زوج الأساور.. تقمصته جهامة الشرطي وكان عاشقاً.. قال:

ــ لم يصل الأمر لهذا الحد.

أطلقت أمه زغرودة طويلة ولم توزع السلفانا هذه المرة.. فالصغير يحتاج وجبة حليب.

١٠ـ حمام

أطلق لحيته حدادًا على صديقه الذي قضى، فازداد بهاءً ووسامة، قبلته أمه وقلدته سلسلة فضية يتأرجح في ذيلها صليب يتعذب، سكنته الطمأنينة لحضن العذراء.. ومضى، شعره الذهبي يتلون مع ضياء الصباح ولم يدع الشمس تسبقه إلى الشوارع.

رشيق الخطوة، شهدوا له بالخفة، وجمال الكتابة على الجدران في ضوء العتمة، عاشق يطرز الجدران قبل أن يتنفس الفجر..

وعندما فُرض منع التجول على حي الصبرة وجد نفسه مقيدا مع شباب أغلبهم ملتح تساءل.. أهو الاعتقال؟!

وقبل أن يقلب السؤال دفعوه.. سأله الضابط:

ــ اسمك؟

ــ عيسى أنطون اللداوي.

ــ ما علاقتك بحماس؟

تأرجح اليسوع المعلق على صدره فاطمأن:

ــ أنا مسيحي.

لكمه الضابط بغل:

ــ لكَ أصدقاء منهم اعترف.

ــ كلنا أخوة...

ـ أنت كاذب.

اشتاق لحضن العذراء وسأل المسيح الراصد لدقات قلبه "هل تعود يا معلمي أمنا العذراء ترقد على كومة حجارة، وتهش للأطفال"

ـ لماذا اعتقلت؟

"لو عدت يا معلمي تعي معنى المقاومة، هل هي خطايانا؟ وهل تعود المجلية تجمع الحجارة لتقذفها على أهل الخطايا".. ابتسم الشاب لو يطاوعني اليسوع ونشكل حركة مقاومة مسيحية نسميها اختصارًا حمام، وانتبه إلى برودة الصليب الراقد على قلبه وهمس معذبًا:

" إنهم يقتلون الحمائم كل يوم"

صلب عنيد وقف، خالف معلمه هذه المرة "لم أدر الخد الأيسر" واشتاق لمساحات الأزقة وصدور الجدران يطرزها على ضوء العتمة.. تذكر صديقه الذي قضى واقتنع بأن الساحات الواسعة تستوعب جميع اللاعبين، وتجلت له غزة بشوارعها وأزقتها وحواريها وأطفالها.. وقبل أن تسقط دمعة العذراء ارتجت المرئيات أمامه.. كانوا يتناوبون عليه قتلا.

١١. ثلاث دقات

ثلاث دقات على الباب، ميزها رغم جلبة الصغار حول لعبة المصارعة في التليفزيون.. وفي عتمة ساحة الدار، سأل:

ـ من بالباب؟

صوت واثق رغم حداثة العمر:

ـ افتح يا عم.

فتح الباب.. زوجته ووراءه كتلة وجوم، والصغار تركوا المصارعة وتشبثوا برجليه.. يحدقون في الملثمين.. قال:

ـ تفضلوا.

ـ الوقت لا يسمح..

ـ الوقوف بالعتبات غير مأمون

ـ لكل أمر حساب

أخرج أبو نزار البطاقة الممغنطة قدمها لهم:

ـ هي أمانة حتى تقرروا؟

ـ الأمانة في رقابنا..

وقبل أن ينطلقوا أوقفهم أبو نزار، ومشى إلى طرف الزقاق، مسح الحارة.. جاس في أركان العتمة.. أشار لهم:

ـ أمان..

مضوا ورجع يتوسط الأولاد حول برنامج المصارعة، ويتحاشى النظر إلى العيون البريئة.. هلل الصغار لهزيمة المصارع الذي خرج عن قوانين اللعبة، وحدث نفسه وبصوت مسموع:

" هذه نهاية الخروج عن قواعد الجماعة"، وفي الفراش غطى رأسه، أعطى ظهره لزوجته، وراح يحاور العتمة في عب البطانية.. همست زوجته:

ـ أخذوها؟

استلقى على ظهره.. أشعل سيجارة ونفخ نفساً كثيفاً في فضاء الحجرة.. قالت مواسية:

ـ أخذوا الهم.

نهض إلى حجرة الأولاد، كانوا يغطون في نوم عميق، سوى الأغطية على الأجساد البريئة، ورجع إلى فراشه.. كانت زوجته تحدق في الليل، تمدد بطولها وجهها لوجهه وابتسم باتساع ملامحه.. تشبثت به.

ـ والعمل يا أبا نزار؟

ـ اقتربي.

احتواها .. تلوت في حضنه.. كان راغباً وواثقاً أنه لن يسرح للعمل مع نجمة الصبح كالعادة.

١٣- مقارنة

دس الخرقة المبللة بالكيروسين في تجويف الإطار.. أشعل عود الكبريت، لكن ريح تشرين قتلت اللهب الضعيف.. امتعض.. أشعل عودًا آخر في وجه الريح فانطفأ .. زاد حقده وخاف على ناره الضعيفة.. مسح رشح أنفه بكم قميصه وتذكر كيف يشعل أبوه سيجارة في وجه الريح.. ظلل العود المشتعل براحة يده الأخرى وأحاط به الجنود.

رفعه الجندي من ياقة قميصه فلعبط في الهواء، وجحظ فزِعاً، تركه الجندي يسقط فارتطم بالإطار.. دفعته مرونة الكاوتشوك فالتوت قدمه ونط يعرج على ساق واحدة..

ضربه الضابط بالعصا على عقل أصابعه الطرية.. صرخ وتفر الدم من تحت الأظافر، انهمرت دموع موجعة لم يمسحها بكم قميصه، فاختلطت برذاذ المطر الذي أخذ يسح خفيفاً يكمر حبيبات الرمل كنثار البذار..

ـ من أعطاك الكبريت؟

صمت وبدا شابًا في السادسة من العمر.. لعبت العصا على عقل الأصابع من جديد:

ـ من أعطاك الكبريت؟

تألم حسام ولم يصرخ.....

كان رجلا يبكي.. لحس دموعه وفكر، قال:

ـ أخي حازم.

جره الضابط وقدر أنه أمسكَ بطرف الخيط..

* * *

احتلوا حوش الدار.. كانت الأم الصبية ترضع صغيرًا حديث الولادة، ويدور من حولهما طفل في الرابعة يعالج بندقية خشبية.. يصوبها نحو هدف يعرفه.

أُخذت الشابة تستر صدرها عن الغرباء، لكن بندقية دفعتها.. صُوبت إلى رضيعها، فتسمرت على الحائط:

ـ أين حازم؟

ـ حازم من؟

ـ الذي أعطى حسام الكبريت.

تكومت تخبيء الطفل وبندقيته الخشبية، وصرخ الرضيع يبحث عن ثدي أمه، تنمرت في وجه الجنود:

ـ لا تفزعوا الأطفال.

اختزل حازم جسده في عب أمه، يحتضن بندقيته ويضغط على زنادها، لم تطلق النار كالعادة، فاغتاظ من بنادقهم المغروسة في صدر أمه، وقبض على بندقيته بيد وأمسك باليد الأخرى قدم أخيه الرضيع، وأخذ يختلس النظر من تحت إبط أمه، فرأى حساماً يمسح أنفه بكم قميصه ولا يبكي.

١٣ - حاتم و.. داني

كلما زار صديقه اليكس في نتانيا يأخذ معه كيس البندورة ذخيرة، وقبل أن يدخل يتعلق الصغير داني برقبته:

ـ هيا نلعب. وفي كل مرة يسأله حاتم:

ـ ماذا نلعب؟

ـ عرب ويهود.

ويبادر داني يقذف حاتم بالحصى، يهب ويزقزق في الحديقة، يختفي بين شجيرات الورد، يستنجد حاتم بحبيبات البندورة الطرية، ويطول الكر والفر وتنفد الذخيرة، فينهي اليكس اللعبة، ويسند حاتم المثخن بالجراح.. ينتصر داني ويمضي إلى أمه يسيل منه عصير البندورة، يغطس في حمام دافئ.. ينتعش ويرقد في حضن خصمه حاتم حتى يغفو .. يتمتم اليكس:

ـ متى ينسى الصغار اللعبة...؟!

* * *

وعندما امتدت اللعبة في مساحات غزة، انتشر الأطفال في الحواري والشوارع يطاردون الجنود، وبكى حاتم من المسيل للدموع، وذهل بين أحمر ثمار البندورة والأحمر الذي ينبثق فور إطلاق

المطاط وطلقات البلاستك والرصاص الحي، وضرب داني في نتانيا جهاز التليفزيون وصرخ حانقًا:

ـ لماذا لا يلعب الجنود مع الأطفال هناك مثلي أنا وحاتم؟!

ويصحو في الليل مذعورًا.. وعندما يهدأ في حضن أبيه يسأل:

ـ لماذا يدوس الجنود الأطفال يا أبي...؟!

تجوس أصابع الرجل في شعر ابنه، يسأل داني .. يتوسل:

ـ لماذا تأخر حاتم يا أبي...؟!

يرد اليكس:

ـ بسبب المشاكل في غزة.

ما بين الإضراب ومنع التجول، افتقد حاتم صديقه، وعند الباب قفز داني إلى صدره، وسكن مثل قط أليف.. تحرش به حاتم:

ـ هيا نلعب يا داني.

تجهم الصغير وأشار قاطعًا: لا أريد.

وهجم على حاتم يقبله، يتفحص تضاريس وجهه، ثم توجه لأبيه محتدًا: عندما أكبر وأصبح شابًا هل سيرغمونني على اللعبة...؟!

حط الوجوم بين الرجلين، تبادلا النظرات واكتسى حاتم بحزن ظاهر.

عاد داني إلى طفولته يداعب صديقه:

ـ لماذا لم تحضر قذائف البندورة؟

ـ لأنها لم تدخل المخيم منذ الطوق الأول.

بحلق الصغير مستوضحاً، فسكت حاتم عن الكلام..

١٤ - الحفيد والجد الأليف

دقة جرس خفيفة، يفتح الباب، يحمل كيس القمامة ويمضي، ويوم الخميس من كل أسبوع يعود بعد الظهر لتنظيف الشقة، ويروي الأزهار في الأصص .. ومع الأيام تولدت بينهما الألفة رغم قلة الحديث.. اطمأنت له سارة، تتركه في الشقة وتعود، تجدها نظيفة مرتبة دون زيادة أو نقصان، ولفت نظرها وحيرّها أن الرجل ينظف ويمسح جميع الأصص وبراويز الصور والتحف ما عدا الورود الاصطناعية وصورة زوجها الضابط والتي تتوسط صدر الصالون.

وعندما يعود زوجها تحدثه عنه.. يمط بوزه فتلمه شفتيها. يصبر على مضض محذرًا: هو عربي، وأنتِ وحيدة!

ـ إنه عجوز هادئ.

ـ ولكنه عربي

ـ إنه لطيف وينتظر حفيدًا..

* * *

ارتفع بطنها وبدا الإعياء على بدنها الشاب.. راقبها الرجل، وفاض به الحنان وأصبح يمر عليها كل يوم بعد الانتهاء من عمله، تطورت الألفة، أصبحت إحساسا بالأبوة افتقدته منذ زمن طويل..

في الأشهر الأخيرة صارت عصبية المزاج.. تفتقد زوجها الذي انتقل للعمل في المناطق المدارة وصـار يتغيب طـويلا، وكثيـراً ما شكت همومها للرجل، يبتسم لها بود، فتشتاق أكثر للأمومة القادمة، ويتورد وجهها.. فيناديها: يا أم دوف.

يسألها إن كانت تحتاج لشيء.. تسرح في المدى.. تحدث نفسها " متى يأتي دوف.. هيا يا دوف.."

في اليوم التالي يحضر الرجل ويُحضر معه من غزة الليمـون والخضار والسمك، ولا ينسى البرتقال الذي تفضله سـارة عـصيراً طازجا.. وفي يوم قدم لها طبق كنافة عربية، استحلبت الكنافة بتلـذذ وتطلعت له بانبهار.. قال جذلاً:

ــ وضعت زوجة ابني ولدها البكر وأصبحتُ جداً.

قبلته وقدمت هدية من أشياء وليدها المنتظر، فرح بها الرجـل وقال بأبوة غامرة: متى يا أم دوف...؟!

ترقرقت دمعة انفلتت على خدها.. تمتمت:

ــ دوف لا يعرف جده.

* * *

توترت الأحوال في غزة وجاء في نشرة الأخبار "فرض منـع التجول على مخيم جباليا حتى إشعار آخر" وبعد الإشعار الآخر لم يعد الرجل.. حل محله شاب يجمع القمامة كل صباح ويمضي.. وفي يوم أفاقت على إحساس باليتم.. سألت الشاب عن الجد الأليف، فاكتـست ملامح الشاب بالأسى، ألحت بالسؤال.. حبس الشاب دمعة وتكلـم..

بهتت ثم تخشبت ثم انتفضت وصرخت واحتضنت وسادتها.. تأوهت.. رفرفت ووقعت مغشياً عليها.. قال الطبيب:

ـ هستيريا شديدة أدت إلى الإجهاض.

في المستشفى حضنها زوجها الضابط.. ظلت جامدة.. نثرت دموعها، وضربته في صدره.. خربشته.. وصرخت ملتاعة:

ـ أنتً قتلته.

ـ قتلتُ من؟

ـ قتلت ابني دوف.. هل تذكره...؟!

ـ أنتِ أجهضتِ.. لا تجزعي..

ـ أنتَ قتلته على صدر أمه في المخيم.

ـ من هي أمه...؟!!

ـ قتلته وهو يرضع..

طوقها.. خاف عليها من نوبة هستيريا جديدة، واستنجد بالطبيب: إنها تهذي.. تتصورني قاتلاً.

* * *

في المخيم، تحدث الشاب عن يهودية أصابها الصرع، فضغطت على بطنها حتى سقطت مغشياً عليها بعد أن عرفت أن حفيد الجد الأليف قُتل وهو يرضع على صدر أمه.

١٥ـ ليلى و.. خالد

خالد وليلى توأم

خالد أسمر نحيف.. يتوسط وجهه عينان سوداوان لامعتان تكسبانه جهامة طيبة.. ليلى بيضاء رهيفة، شعرها الذهبي يلمع كلما حط الصبح عليه، تنعكس على رفة عينين تتاجيان بحار برئ.

في عيد ميلادهما الرابع أهداه أبوه حصانا جميلاً له قوائم عالية وصدر ضامر نحيل.. يزوم ويصهل كلما جذبه خالد، وأهدتها أمها عروساً تفتح عينيها وتغمضهما.. تضحك وتناغي كلما وسدتها ليلى على صدرها..

كان الصبح نديًا وكانا يلعبان؛ خالد يقود حصانه.. ليلى تزف عروستها على ظهر الحصان.. تمضي الزفة حتى تصل الأرجوحة في حديقة الدار.. يربط خالد حصانه في جذع شجرة اللوز، ويجمع له الأعشاب عليقًا، وتساعد ليلى عروستها بالهبوط عن ظهر الحصان.. تناغيها .. تغرغر وتضحك حتى تنام على صدرها.. تفتعل ليلى أمومة مبكرة .. تهدهد العروسة تقرصها.. تبعدها عن صدرها وتنهي رضاعة مزعومة.. أما خالد فمشغول بحصانه، يسرجه بقطعة قماش، ويلجمه بقصبة عشب جافة، وينهر ليلى أن تُسكت الصغيرة الرعناء.

الأم والأب في عرس متجدد يراقبان الأمر بولـه وانبهـار.. يتبادلان نظرات أبلغ من الكلام..

فجأة يُسمع صوت ارتطام حجر وزجاج يتهشم.. تشحط الإطارات على الإسفلت، وينط في الدار صبي شاب يقفز عن سور الحديقة إلى الجيران.. يفرقع الرصاص.. ينخلع الباب تحت وطأة الأحذية الثقيلة.. ينتشرون في المكان، يدفعون الأب في صدره.. يقع أرضاً:

ــ أين هو...؟!

ــ من هو...؟!

ــ الصبي.

ــ لا يوجد غير الطفلين.

ــ كذاب..

حوطت المرأة طفليها صرخوا بخالد:

ــ أين الصبي...؟!

ــ ركب حصانا ومضى.

دفعه أحدهم.. تدحرج بين أرجلهم.. تكوم عند حصانه.. صرخوا بليلى:

ــ أين الصبي...؟!

سكنت الشمس على ضفيرتها، وهاج البحر في عينيها، وارتمت على خالد تحبس دمعة خوف:

ــ أين الصبي...؟!

ـ عند العروسة التي ترضع الأطفال.

داس الجندي على ظهر الحصان، فانغرست قوائمه في أرض الحديقة.. داس الجندي أكثر، فغطس الحصان في الطين.. لم ينكسر ظهره، وظلت قصبة اللجام في فمه..

نكس الجندي رأسه وشاط الأرجوحة بقدمه الثقيلة.. وعندما غادروا الدار كانت الأرجوحة تعلو وتهبط، والعروسة تناغي وتضحك، تفتح عينيها ولكن لا تغمض.

---

* كتبت هذه الحكايات في بداية الانتفاضة الأولى ١٩٨٧ ونشرت في الصحف العربية والفلسطينية في حينها.

الدفتر الثاني

قوس الربابة على وتر مقطوع

شهادات

قوس الربابة على وتر مقطوع

غزة هي الحالة

الجغرافيا المصادرة، المطرودة من جفاف صحراء النقب إلــى حضن المتوسط جرف من يابسة فقيرة، ترقد على بعض ماء عــذب، وكثير من ماء مالح تسرب وما زال يتسرب من ماء البحر، يقتل نهر الماء الجوفي كلما شدنا الجنوب إلى رحاله.

كثبان رملية متحركة، وتلال وبطون تكونت بفعل جيولوجيــا قديمة وحديثة، رمال زحفت على الأرض المجاورة شرقاً، طمــرت تربة وأشجار ومدن وقرى لترقد غزة على منجم حضارات وتواريخ خيل للعابثين أنها طمست وكأن قتل الأشياء عادة حميدة، وفعل مبرر.

في الفاجعة الأولى طورد الناس حتى وصلوا إلى التلال، سويت الرمال وصارت أمكنة شبه معمورة، بعض خيام وأكــواخ، وبيــوت صفيح تمددت وسميت مخيمات لاجئين، تبلــورت فيهــا الأجيــال، تناسخت وتناسلت وأصبح المخيم واقعا سكانياً، لا هو بالمدينة ولا هو بالقرية أو الكفر أو النجع أو البادية، لكنه المرجل الذي تفاعلت فيــه كل الأمكنة، ولم تفقد خواصها أدغمت الحالات ولم تندمج، اختلطــت ولم تنصهر أو تذوب، وشكلت ظاهرة سكانية لها حضورها ومقومات وجودها، لها أهدافها وأحلامها استخلصت هذه الكتلة البشرية مبرراتها وسيرت صيرورتها لتصبح كيانا اجتماعياً وحالــة حاضــرة، تــشد

الدارسين وتدهش المراقبين، وتحير علماء الاجتماع ومحترفي تأويل السيسولوجيا. في غزة تتجاور المدينة والقرية والمخيم، يحدث الإدغام لدرجة التكامل، ويُطرح السؤال المشترك.

ما معنى أن تكون هنا والوطن خلف بوابة على مرمى حجر، أو على مدى رشقة نظر، العين ترى واليد ترشق، والحمولة عبوات حقد وبأس وتمرد، العبوة حجر بقي على الأرض ينتظر اللحظة.

حجر هامشي مرفوض يسكن أديم الأرض، ينتظر لحظة توهج، لا تدري القبضات الغاضبة أن حجارة الأرض، نتف من صخورها، تحدث فعلا كالمعركة وهو ليس بمعركة، ثورة وهو ليس بثورة، انفجار امتد انفجارات متتالية لم تهدأ بعد، اندفاع جيوش بلا رتب أو مراتب، كل الناس من كل الطوائف والشرائح والأعمار، الكهل والرجل والشاب والطفل والأمهات والأجنة في بطون الحوامل.

ما الذي حدث وما زال...؟!

وعلى أي المعادلات تسير الحالة وتتبلور الأحوال...؟!

لا معادلة غير حتمية الصدام، ولا قانون غير قانون الانتفاضة التي عثرت على وسائلها، لا ميزان بين قوى العظم واللحم الآدمي وبين البارود وفولاذ الدبابات والعربات المجنزرة، ولا اختراق غير ما تحدثه الحجارة في بنية الوجدان الإنساني، وما تصنعه القذائف والمقذوفات في العظم واللحم.

لا توصيف فالوصف أقصر من الموصوف، والحدث تجاوز الوعي المقدر والتوقع المحتمل، فالأمر تجاوز منطق الرؤيا، وفوران

يتجاوز درجات الغليان الفيزيائية، وانفجارعن مقياس لا يقيس انشطار الدمار النووى الشامل؛ لأن الانفجار هذه المرة، دمر الأفكار والمقولات والأسس التي قولبت طاقات الشعوب والجامعات المطهدة .

الحالة هنا تقرر قانوناً جديدا هو قانون الانتفاضة الشعبية، والشعب الفلسطيني هو المبادر والمتفجر.

الانتفاضة سياق حياة في غزة المحاصرة بين بوابتين من حديد وبارود، غزة منفية أقصى جنوب الخارطة، تقطعها السيارة في نصف ساعة على طول ٤٥ كيلو متراً وعرض ثمانية كيلومترات، تتمدد وتتكمش مع شهيق وزفير المعاناة اليومية، وغزة رئة استوعبت هواء الكون وطيرته رسائل غضب، فالانتفاضة أصبحت أهم معالم الحياة تحت وطأة الاحتلال، وهي الوسيلة الوحيدة المتاحة؛ لأن الظلم استشرى، والرياح أتت بما لا يتفق مع مرافئ السفن ومحطات الوصول المنتظرة؛ ولأن الزمن العربي الإسرائيلي لم يستلقط اتجاه بوصلة الناس، تكرست الانتفاضة جهدا مشروعاً ومفتوحاً على كافة الاحتمالات، فهي الملاذ لشعب ما عاد يمتلك من مقومات الحياة غير الرغبة في الحياة على جغرافيا محددة في كنف دولة وتحت راية.

تلك بواعث المواجهة. وفي المواجهة تتعدد الصور والوجوه، ويتجلى وجه الله ووجه الوطن مهما تنوعت الأفكار والبرامج، ومظاهر القصور والمتاهات المتوقعة التي لم تشكل استثناء لا يكرس الانفصام الذي يقود إلى الانفصال أو الاقتتال مهما تعقدت مظاهر الخصومة، وهذه خصوصية مفاجئة، وعلى الباحثين في علوم

الاجتماع السياسي دراستها واستخلاص عبرها؛ لأنها جوهر الحالة وهي الطريق إلى بلورة نظرية الحاجة والمتاح، والموجود والممكن، والتجاوز عند الضرورة، والتريث قبل الانفجار، والتشظي الذي يلتئم لوحة غير سيريالية، وإن بدت أشد غرابة، فالحياة في هذا الوطن غرائبية عجائبية، لا تتمنطق بقوة الشياطين وأدوات اللا واقعي والخيالي، الحياة قفزت عن واقعية الأشياء وأوجدت ممارسات مفاجئة تدهش الآخرين، والحمد كل الحمد لوسائل الإعلام المسموعة والمرئية، والشكر كل الشكر لكرامات تكنولوجيا ثورة المعلومات التي تصدر الخبر عند وقوعه وتقف بالمرصاد للتأويل والتكذيب، فالصورة سيدة الموقف، والجغرافيا المصادرة تصبح باتساع الدنيا تثير الأسئلة في فضاءات المعمورة.

وفلسطين تطرح الأسئلة

سواد النهار وبياض الليل

غزة مضغوطة بين بوابتين

بيت حانون "إيرز" شمالاً تدفعك إلى وطن مصادر اسمه "إسرائيل"، وبوابة رفح جنوبا تأخذك إلى مصر (بلاد العُرْب أوطاني) إذا ما اجتزت أسلاك كامب ديفيد وأشواك السلام الممصوص من سلام العافية، "إيرز" بوابة الحلابات، تشفط العمال عرايا حتى من طعام الإفطار، ضحايا محتملة لأصابع جندي مرتعشة سجنوه في برج المراقبة، علقوه في الهواء يمارس الخوف والتوجس والذعر على مدار الساعة، رغم هدير الأباتشي التي تحتل السماء والدبابات التي

تحرث الأرض، وجندي برج المراقبة زحفت كل حواسه الخمسة إلى أطراف أصابعه على الزناد، والعمـــال قطعانــاً يمــضون وقطعانــاً يعودون، بقايا آدمية هامدين بفعل رضاعة عكــسية أخــذت العافيــة وانحل فيها البدن وتسلخ الجلد خلال ثماني ساعات عمل في الحقــول والمصانع والورش وأشغال الطرق السوداء، يكمل ذلك عشر ساعات مرافقة لتأمين الوصول والعودة.

يخرج العامل إلى الحلابات قبل أن يلفظ الليل آخــر العتمــة، يصلي الفجر على رمال ما قبل الحاجز مع بياض أول النهار، ويعود بعد صلاة المغرب وقد يدركه آذان العــشاء، مكــدود يطــارد رزق العيال، والعيال ينتشرون في الأزقة رصيدهم الأهم الحجارة، والحالة صارت واقعا بفعل طول التداول؛ ولأن للحياة في غزة شؤون أخرى، فلابد من التعايش مع الآني لحظة بلحظة، عبور إلى الآتي المفتــوح على فضاءات لا تتعامل معها الرحمة في المدى المنظور، وليس أمام الناس غير تقمص الإصرار على البقاء بانتظار يوم قادم مــن رحــم الغيب، يحدسه الناس ولا يمسكون بمقوماته، واقع يمد لسانه لشطحات المبدعين وهواة الفنتازيا في زمن تتقولب فيه الأشياء، لتــدخل فــي منظومة الإدراك ضمن محددات مادية الكون.

والكون هنا بين معبرين يعيش المحاكمة، بين مــوت الحيــاة، أو الحياة في موت مقيم، بين شربة ماء عذب أو التعود على ماء مالح يخرج من بئر تفحم احتجاجاً على مصادرة الينابيع وخزانات الميــاه الجوفية تحت قاعدة الجدار العازل أو الفاصل سيان.

هل هي المقاربة بين زلزال لم يحدث؟!؛ لكن موجودات المكان تؤكد حدوث أكثر من زلزال بدرجات تجاوزت مقياس ريختر، فهل ينتحر ريختر؛ لأنه لم يفكر في مقياس زلزال البارود بقرارات الإعدام المسبقة، وترك لشارون تسجيل براءة الاختراع، أم أن القضية معلقه بين رسالة العلم ورسالة الأخلاق.

هل هي قضية خلافية بين جنرالات الحرب وممثلي الرب في إسرائيل، قد يكون الأمر كذلك، لكن الانفجارات حدثت ومازالت.

ودرجات القياس يدركها الناس على جلودهم وبقايا أجسادهم، ولغزة قراءة فريدة تقوم على الاختيار بين طفولة مفقودة، وشباب مقصوف ورضيع لم يشبع من صدر أمه يستقبل قذيفة صممت لاختراق الدروع.

رفح عالم آخر

يعيش الناس على إيقاعات خاصة، وحكايات خاصة، لـم يعـد الموت هنا مفاجأة أو فاجعة، ولا هـدم البيـوت حـادث اسـتثنائي، ولا اختراق الرصاص صدر رضيع على صدر أمـه فعـل يفـوق التصور، الإيقاع شديد الخصوصية، الموت والهدم والتجريف، وغياب الصغار والكبار صارت من مألوف الحياة، لا تثير عجباً أو استهجاناً إلا عند المراقب القادم من خارج المكان، وأعضاء الطواقم الصحفية والإعلامية، وطواقم حقوق الإنسان والمنظمات الإنسانية.

سئم الناس من الحديث.. المكان يتحدث فالناس هنا لا يثقـون بالسياسة ولا يأبهون بالسياسيين، يهزأون من الفضائيات وقنوات البث المباشر؛ لأنها ترسل أطراف الحدث، ولا تقترب من بؤرة الانفجار، الناس هم الحدث وهم ضـحاياه، الآدمـين والأشـجار والحيوانـات والبيوت، أرواح تتقافز في المكان لا تموت، تغفو مع انطفاء لؤلـوة عين الشهيد، وتستفز مـع شـلل الأعـضاء والأطـراف المـصابة أو المبتورة، تسكن الأرواح الحفر التي تخلفها جذوع الأشجار التـي اقتلعت بعد طول ثبات، تهجع الأرواح قبل الفجر بين ركام البيـوت المنسوفة أو المقصوفة أو المجرفة، تلملم حكايات المكـان وتحـتفظ بأسرارها المقدسة.

في رفح تتبدل الأشياء تتناوب الحالات والأحوال، والموت سيد المكان، الطير في الفضاء مذعور من الطائرات الزنانة، الأزيز يربك خفق الأجنحة، ينعف ريشها، يصرعها ضغطاً أو تفريغ هواء أو فرقعة، تدور الطيور ثم تسقط في قبور الآدميين، أو عند مرقد الشواهد، أو في ظل جثة حيوان، فلا فسحة للحياة في الموت، ولكأن الحياة تهيؤ فاصل لحكاية بدايتها الموت ونهايتها موت، وما بينهما موت وذكرى لا تموت. هذا ما تمتم به من أخذني إلى الرجل صالح أبو مور لزيارة ابنه الطفل ابن العاشرة إبراهيم، الذي لم يكن يأبه لما كان يدور، ملعبه الأثير بالقرب من بوابة صلاح الدين، يأخذ كرته وينظم فريقه ويمارس هوايته يستعرض قدراته على تمرير الكرات، ويصوب نحو مرمى الفريق الخصم، ويشهد الملعب لاعباً مناوراً ذكياً وخفيفاً، وراشقاً للأهداف لا يخيب.

يقول أستاذ الألعاب في المدرسة: يصر إبراهيم عينه اليسرى، ويفتح اليمنى على أقصى اتساع، فلا يخطئ الزاوية ولن يرضى بأقل من ارتطام حارس المرمى بالأرض مهزوماً، غرامه أن يرقص الحارس قبل أن يسدد؛ ولكنه عند بوابة صلاح الدين يستفز قناصاً يراقب المكان من برجه العالي، القناص شبحه على صليب منظار البندقية، وقذف فانطفأت عين اللاعب، ضاعت العين العسلية الذكية وسكن كهف العين عين زجاجية ميتة لا تميز بين الدمع والقذى.

مشكلة إبراهيم أن العين المفقوءة لم تتوقف عن الإدماع، الأمر الذي يثير عجب الطبيب المعالج.

والد الطفل يسأل: إلى متى ستظل الدموع ...؟!

يقول الطبيب الذي خذله علمه: إلى أن يجف معين غدة الدمع.

ــ ومتى...؟!

يراوغ الطبيب الذي يعز عليه استئصال الغدة:

ــ عندما تدرك الغدة عبث اللعبة، وأن العين الزجاجية لا تنظفها الدموع.

* * *

هؤلاء من فعلوها .. سالي الشاعر، تيبس ساعدها الأيمن على انثناءة طارئة، رصاصة عوراء هشمت عظم المرفق، وقتلت أعصاب الكف، الأصابع ظلت مضمومة ما عدا السبابة، الذي ذعر عصبه، وبقي مشدوداً ليبقى الإصبع مشدوداً يقرر حاله. السبابة تشير:

ــ هؤلاء من فعلوها ..

كان الإصبع يشير إلى جنود أقاموا متراسهم قريباً من البيت.. قالت: كنت على السطح أتفرج على الناس في بيت عزاء محمود صديق أخي الشهيد جمال، وفجأة حاصرت الدبابات الحارة، وأطلقت القذائف، وانهمر الرصاص، هربتُ إلى أسفل، لكن الرصاصة لاحقتني فارتميت على الأرض ولم أصحُ إلا في المستشفى.

البيت عار، يعود لقريب مغترب، لجأت إليه الأسرة بعد أن جرفت الآليات البيت في منطقة الشريط الحدودي وقتلت جمال.

الأب يتكوم في الزاوية يتلفع ببطانية سوداء هدية من الصليب الأحمر يدس بخاخة في فمه بين الحين والحين يستقيم تنفسه، وتسكن

عيناه، يبصق سعالا جافاً، يزحف إلى الستين، جسده يقول إنه عايش المرض منذ زمن طويل.

ــ هذه المنطقة اسمها الجنينه، كانت جنينة رفح، صارت مقبرة. سالي مبطوحة، تسند خصرها على مرفق يدها اليمنى، وتدرب اليسرى على الكتابة، أنظر إليها، تبتسم ثم سرعان ما يتقمصها تجهم مفاجئ، أسمع فحيح تنهدها .. أتساءل: كيف يتنهد الصغار...؟!

تنهض سالي تفتح صفحات دفترها:

ــ هذا خط اليمنى قبل الإصابة، وهذا خط اليسرى.

شتان فالفرق كبير، خط اليمنى جميل واثق. وخط اليسرى خجول متعثر يبحث عن لياقة مفقودة.

أخذت يد سالي، حاولت فرد أصابعها المضمومة، لم تستجب وظلت مضمومة، حاولت تعديل وضع الساعد المشدود، رأيت الألم على وجه الطفلة فأجحمت، وظلت السبابة تتهم.

ــ هل رأيت الجندي الذي أطلق عليك النار يا سالي...؟!

ــ رأيت الجندي الذي قتل جمال.

ــ هل تسطيعين التعرف عليه ...؟!

ــ كنت خائفة، وكان الجندي مرعباً.

عين سالي صافية يسكنها حزن عميق، وكأنها قفزت عن عمرها إلى مستقبل مجهول، سألتني بصوت متردد:

ــ هل لجنود الاحتلال أولاد مثلنا ...؟!!!

أنياب الجرافات

للجرافات الإسرائيلية مهام أخرى في غزة، وللجرافات أدوات ملحقة تقوم بأعمال التجريف والهدم واقتلاع الأشجار، بارود العدو يحصد الأرواح وجرافات العدو تقبض على أرواح الشجر والحجر، والأقدار في غزة موصولة مترابطة.

عمي حامد المنجد الجميل الذي اشتغل بأصابعه الذهبية فراش العرسان وطرز ملاءات العرائس، تقاعد عن مهنته واشترى عشرة دونمات فأصبح مالكا في بيت حانون.

الأرض بيارة برتقال، وعمي حامد يسري مع نجمة الصبح، يتفقد الشجر، يترنم بأهازيج الأعراس بعد أن يتلو آيات من الذكر الحكيم.

جرفت البيارة وردم البئر.

ــ شجرة واحدة استعصت عن سن الجرافة.

يبكي عمي حامد كما لم يبك ولد أو زوجة، وهو الذي فقد أحب أولاده إلى نفسه في الانتفاضة الأولى، وفقد زوجته التي ذوت حزنًا على ولدها بعد أسابيع من الموت قال:

ــ صارت البيارة ساحة الغربان وجراء الثعالب الضالة.

ــ في المال ولا في العيال يا عمي.

ـ الشجرة مثل الولد تربيها، فتعوض عليك تعبك وتغنيك عن السؤال.

يحدث نفسه:

ـ السؤال وعرفناه، والجواب لم نسمعه بعد.

الذي يؤرق عمي لدرجة الموت، هو كيف يصل إلى الأرض بعد أن اعتبرت نطاقاً أمنياً...؟! يعزي نفسه:

ـ الأرض باقية، لا ترحل ولا تهاجر، لكن الشجرة اليتيمة عطشانة.

عمي حامد يحوم حول الأرض ينتهز الفرصة ليدلق جالون الماء حول الشجرة، وفي يوم آوى إلى فراشه وقد ضربته القشعريرة:

ـ ما بك يا عمي ...؟!

ـ الشجرة صامت يا ولدي.

ـ وكيف عرفت ...؟!

ـ سكنها الغراب، ولم تطلق أزهارها. الشجرة حزينة...

ـ وهل يحزن الشجر ...؟!

ـ كل من تسكنه الروح يفرح ويحزن...!

يفاجئني منطق عمي، الروح تفرح وتحزن والروح تعلن الحداد، ولكل روح أسلوبها الخاص وطريقة تعبيرها ..

الأمر الذي يحير الناس في غزة، صيام أشجار الزيتون عن الأثمار، التفسير يملكه فقط من خبر السنين، علمته أن الشجر يعبر عن حزنه بالتوقف عن الأثمار.. قلت:

ـ محصول الزيتون خفيف هذا العام.

ـ وهل المصائب الذي نزلت علينا قليلة يا ولدي!!

ـ وما علاقة هذا بذاك ...؟!

ـ روح الزيتون مباركة تعرف ما لا يعرفه البشر.

طأطأ عمي حامد، وأسدل جفنيه وكأنه يتقي الضوء، كان وجهه صافياً على شحوب رائق شفاف، خلته يحاور كائنات بعيدة تبتسم.. شدني وأخذت أجوس في تعابير وجهه حتى أفاق من غيبوبته/ حلمه. فتح عينيه وحدق في الضوء، وحزم أمراً:

ـ سأزرع الأرض.

ـ ولكنه الحصار.

قاطعني بصرامة:

ـ سأزرع الأرض.

إنهم ينسفون البحر

الصياد العجوز لم يعد ينام على الشاطئ؛ لأن ظل مركبه قد اختفى، صدور المركب عندما صودر البحر، وأصبح الشاطئ عذاباً. يملأ الصياد رئتيه بدخان عربي قوي، يسعل وهو الذي طالما تباهى على أقرانه ومجامليه بأنه لا يسعل فهواء البحر يبطن رئتيه بزاد رباني، من يركب البحر، لا يألف العيش على البر...؟!

الصياد العجوز يعتبر الماء بيته ومرقده، يتخذ من سيرة البحر تقويمه ومداد عمره، يؤرخ للأحداث بالنوات ومواسم الصيد، يعلق إشارته عند إشارات البحر عند رضاه وعند غضبه، يرف جفنه الأيسر ينتظر ألماً قادماً، يدق صدره، فيعرف أن أسراب السردين، وطيور الغربي (السمان) في الطريق إلى الشباك، يغير النسيم اتجاهه، فيعرف كم من الوقت سيمر قبل أن تصل جحافل البوري أو الدنيس أو كلاب البحر، حتى سلاحف الماء ترسل إشارتها قبل أن تدفن بيوضها على الشاطئ أو في تجاويف الصخور، الحياة مع البحر مواسم، ولكل موسم عدة وعتاد ولكل صيد طقوس وبهجة والبحر جواد لا يضن على خليله، والبحر عجيب إذا صام ينغلق على سره، لا يسلم مفاتيحه إلا لمن عرف السيرة وأدرك التقويم وزاوج بين مسار النجوم في السماء وحركة التيارات في بطن الماء، والبحر عميق وصدر الصياد واسع رحيب، البحر قدر، والصياد يمتثل للمقدر

والمكتوب، يصارع ولا يغضب من البحر، غضبه دائماً على نفسه فهو المخطئ لأن البحر أزلي لا يغير مواعيده إلا إذا اهتزت الأقدار. الصياد العجوز لم يعد يركب البحر، ترك مركبه على الشاطئ حتى شاخ المركب امتعاضاً وحزناً، والصياد الذي يطارد المدى يقف له.

الطراد الإسرائيلي على مرمى نظر، يرشفه إذا أغرته الحالة، يرده إلى الشاطئ، وينتشر الرعب في الماء، يتسرب الدبيب إلى أعماق الماء تتردد ذبذباته، تثير الهلع بين سكان الماء، تهجر كائنات البحر المطارح بعيداً يتجاور مرمى زوارق الحرب الإسرائيلية، يتنهد العجوز، ويتجرأ عليه السعال، يحدث نفسه:

ـ إلى متى سننتظر الأسماك في المياه العميقة...؟!

ـ هي بانتظارك يا سيد البحر.

ـ الأسماك يا والدي إذا تغيرت عليها المطارح تأخذ قرارها بالانتحار احتجاجاً. وفي يوم ضبطت العجوز في السوق، يزعق غاضباً في الباعة: ـ لا تعرضوا هذه البضاعة.

ـ لماذا يا ريس البحر...؟!

ـ هذه الأسماك انتحرت، قذفها البحر فوقعت في الشباك ميتة.

تحدثت غزة عن طرح البحر العجيب، فقد قذف البحر، أخلاط من الأسماك على رمال الشاطئ، ميتة متزلعة تشوبها بدايات عفن، ولم يدرك الناس سر الحالة، الصياد العجوز اعتصم بجدار بيت وقف حديثاً وأخذ يتمتم: "لم يستطيعوا تجريف الماء ففجروا البحر بالقنابل"

يصرخ البحار العجوز في الناس: "أنتم في زمن يتفجر فيه كل شيء حي، لكنهم لن ينالوا من توقيف البحر لأنهم لا يعرفون أسراره"

الطيور في سماء غزة

لا طيور في سماء غزة، لا ريح تحمل ريش الأجنحة ولا نسيم يعبق بأريج الفصول، فالفصول بوابات دم إثر دم، الهواء في غزة ثقيل/ حزين/ ملوث/ محتل، حتى الغربان والبوم لم تعد في عرف الناس طيور شئوم وخراب، الغربان السوداء غادرت قمم أشجار السرو وتوقفت عن النعيق. تقصفت هامات الأشجار العالية، ولم تجد البوم عتمه تأوي إليها في النهار، الخفاش تزلعت أجنحته بفعل الردم ونثار الانفجارات.

في الفضاء تصغر الطائرات الزنانة كما يسميها الناس على مدار الساعة، تصور ما يدور على الأرض، وتسجل حركات الناس حتى في حجرات النوم، وعلى موائد الطعام الفقيرة.

الحالة في غزة كما الوطن، حالة عري قسري ولا خجل ولا فضيحة، إلا فضيحة الإسرائيليين كل لحظة ويوم، لا حضور إلا لهدير الأباتشي وطائرات أف ١٦ والكوبرا إذا لزم الأمر.

في الفضاء موت يترصد الناس والحيوان والطير والبيوت وإسفلت الشوراع التي ما عادت معبدة.

والصيد طفل، رجل، امرأة....

حارة نائمة على جوعها وجراحها وقتلاها.

القتل في غزة طقس يومي يتجدد ينثر بهاءه، والقتيل/ الشهيد، يطبق جفنيه على راحة أبدية لا يسأل إذا ما تناثرت أشلاؤه أو تشظت والحالة في غزة حصار...

الحالة موت وأسئلة ووطن.

والحالة في غزة بحث عن زهرة في شعاب الكوابيس، وقوس ربابة يطلق لحنا مشروخا ووترا مقطوعا/ موصولا.

---

* نشرت هذه الشهادة لأول مرة في مجلة مشارف، ومجلة الشعراء في العام ٢٠٠٢

الدفتر الثالث

حدث ويحدث الآن في غزة

شهادات ميدانية

١- وزارة فوق الأرض

بين رفح ورفح طريق بري يهزأ بالحدود الإقليمية.

وبين رفح ورفح ماء لا يخضع لفيزياء الثني واللـــف والقطـــع والانكسار وفساد الرائحة.

وبين رفح ورفح والمدى دبابات وجرافات وبنادق وموت.

وتحت الأرض...

وبين رفح ورفح نفق ثعباني على طرفيه شُطار وعُيّار وتجار وحراس لهم أعرافهم وتقاليدهم الجديدة.

قال مستثمر حنكته لعبة التجارة وعلمته الأسواق:

ما جدوى وزارة الزراعة والصناعة والتجارة والسياحة والـــ..

رد عليه تاجر وقت ملتبس:

ــ الوقت حصار والضرورات تبيح المحظورات..

ــ وإلى متى...؟!

مص تاجر الوقت سيجارة L.M وعجعج ضاحكا:

ــ ألم يعلمك السوق أن وزارة الأنفاق نجحـــت فـــي ترشـــيد الإنفاق...؟!

٣.في زقاق ما

في زقاق ما.. في حارة ما..

في غزة يسكن في أول الزقاق كادر حمساوي معروف.

ابنه الشاب فتحاوي متعصب، ويسكن في آخر الزقـاق كـادر فتحاوي معروف، ابنه الشاب حمساوي عنيد..

وفي يوم المعمعة تحاشى الأولاد النظر إلـى وجـوه الآبـاء، فطالت الآباء شكة نالت من عين القلب...

وتربع السؤال بحجم جهنم .....!

٣. رهائن

في غزة حكومة ولها رهائن في الضفة الغربية...

في رام الله حكومة ولها رهائن في قطاع غزة.

والوقت الفلسطيني الأغبر أخذ كل الفلسطينيين في الوطن والشتات رهائن..

وفي الوقت الأغبر ضاعت البوصلة، وتاهت عن بؤرة جذبها، وأخذت تدور حول نفسها بسرعة مجنونة.

وفي غزة يدور الواحد من الناس حول نفسه، وإذا سألته عن سبل الخروج من الحالة يعجز ويعتصم بالواحد القهار:

ــ دوام الحال من المحال وربنا يولي الصالح.

ــ ومن هو الصالح...؟!

ــ الصالح من تؤرقه مصالح الناس ...!

ــ هل تدلني عليه...؟!

يضحك الواحد من الناس: ضاع مني في المعمعة...!

ويهرب من الحوار إلى مربع آخر.

ويبادر بالسؤال المضاد:

ــ هل تعرف سعر كيلو اللحمة بالنسبة لسعر الشيكل على الدولار؟!

٣- فدوى تعود إلى غزة

في غزة اجتمعنا لإحياء الذكرى الثالثة لرحيل الشاعرة فدوى طوقان، كان الحضور نوعيًا وكان المكان يعبق بالذكريات والحكايات من منا ليس له مع فدوى حكاية...؟!

ومن منا من لم يرضع من حليب العذراء التي أنجبتنا جميعاً؟

كنا مع فدوى طوقان في ضيافة صالون نون الأدبي واتحاد كتاب فلسطين، وكانت فدوى بيننا بلحمها ودمها.

طفلة تزحف نحو الثمانين بشهية وشبق للحياة.

وأقسم أنني رأيتها امرأة وردة خارجة للتو من حمام نابلسي عتيق وقد جردت جسدها بليفة معشقة بصابون نابلسي طازج ما زالت رغوته عالقة برموشها.

كانت فدوى بيننا عروسا تتبختر..

وكنا خجلين من استقبالها ونحن على هذه الحال...

فكم كانت فدوى تغفو على وسائد عاشقيها في غزة؛ لكنها الرحلة الثالثة بعد الغياب، والوقت في غزة فضاء دموع وألم وأن أجمل ما في الأمر أننا سرقنا من الوقت ساعة وفاء للوطن عندما اجتمعنا حولكِ يا فدوى، فلا تنهضي من رقادكِ يا عروس حتى لا تُثكلي للمرة الألف بما يحدث في غزة.

٤. من رسالة لصديقة
تقيم في مكان ما

يا سيدتي:

لا ضوء في غزة، لا عود شمع.. ولا سراج.. ليل في النهار وليل في الليل.. العتمة شرشت في الزوايا..افترشت كل الطرقات.

تاهت المواعيد إلا من مواعيد الضوء، الذي إن أتى يأتي مع القادم جودو "الكهرباء"

هل سمعتِ آخر الأخبار في غزة...؟!

العصافير أخذت قراراً جماعياً بالانتحار، ربما يأخذك الهول.. ربما تسكنك الدهشة، تسألين عن مبررات القرار..

لا ضوء يطرق أبوابها.. يرفع النعاس عن أجفانها، لا حَبَّ في الطرقات، ولا سنابل ينضجها هجير الصيف، لا كسرة خبز، لا حليب، لا غناء، ولا شوق انتظار..

ربما يأخذك الحنق.. ربما تصرخين غضبى:

ـ ما الذي في غزة إذن...؟!

ـ لا شيء غير جنون الانتظار!

والانتظار هنا موت، فهل في الموت انتصار...؟!

تخرج جموع الناس تطلب خبراً، تتجشأ البنـــادق حـــشواتها.. تتخلص من بعض نجمات.. يسقط الناس بين قتيلِ وجريح، تـصدح الإذاعات.. ترفع الرايات للقاتل والقتيل..

تهزج غزة بأهازيج الذهول.

كل من غاب شهيد.

كل من حضر شهيد.

كل من توارى عن المشهد، يشهد: إنه فعل الجنون..

هل أدركت الآن يا سيدتي سر العتمة في غزة.

لا ضوء في غزة.

لا أصبع شمع، ولا حتى سراج.

نَضب الزيت وجفت شرايين الفتيل..

وغاب الضوء عن جفن القتيل.

ليل في النهار وليل في الليل...

أسود صار دمي...

٥. نائب فاعل

في غزة يُخطف الكبير والصغير والأمير والحقير، والخاطف في وسائل الإعلام مجهول، والمخطوف معلوم، قد يعود وقد يصبح مبنياً على المجهول، الناس في غزة تدلهم حواسهم أن الخاطف في جميع الحالات هو نائب فاعل.

وفي غزة يُداهم منزل عضو المكتب السياسي، ويُؤخذ الوزير من بيته، وهو ليس من فتح، ولا من حماس.

قبل أن يمسح عن وجهه غبار المعابر والبوابات.

الذي يفعلها دائما هو نائب فاعل، والتحقيق لا يزال مستمرا، فلا قلق ولا خوف ولا إجابات على أسئلة معلقة في غزة هاشم.

حيث الأمن والأمان...

هل منا من ينكر ذلك...؟!!!

٦. وردة العاشق

شاعر عاشق يعيش في غزة .. تمنى لو يهدي خطيبتـــه وردة بيضاء في يوم عيد ميلادها، فلم يعثر في جيبه علـــى شـــيكل واحـــد لتحقيق الأمنية، فألف لها قصيدة زرع فيها باقات من الـــورود التـــي تحبها، لكنه لم يجد ورقة بيضاء يسطر عليها القصيدة، فكتبها علـــى آخر ورقة كلنكس أخذها من بائع الفلافل..

وفي الطريق تذكر حماته التي لا تمل من تذكيره بميعاد الفرح، فضربته قشعريرة الجوع، فسعل وبصق في الورقة/ القصيدة...

بكى ولكنه واصل الطريق وظل يبكي...

أخذته خطيبته إلى حضنها وربتت ظهره، وهمست:

ــ هل ضربوكَ...؟!

ــ وكيف عرفتِ ...؟!

ووشوشها بقصيدة طازجة تبرعمت بينهما للتو واللحظة.

٧. تناسل

في غزة تعلن الحقائق عن نفسها.

ففي غزة تتناسل الرايات الخضراء والصفراء والحمراء، أما الراية الأم، فتنادي على من يرفعها...!

واللافت في غزة أن الريح عندما تصفع الرايات، تتحول الرايات إلى لون الليل، ففي غزة مغلقة ورش العمل لغياب المواد الخام، والمصانع طال الصدأ مفاصلها وأصابها داء التكلس والموات.

وفي غزة موظفون مدنيون يقبضون من حكومة رام الله، ولا يعملون قسرًا، وموظفون مدنيون يقبضون من حكومة غزة ويجهلون ما يعملون لحداثة العهد.

وفي غزة عسكر غادروا مواقعهم أو أبعدوا عنها، وعسكر جدد علقوا النياشين والرتب ووقعوا في بلبلة المسئولية.

وفي غزة الناس، كل الناس في إجازة طارئة، يرهفون السمع لمنابر إعلامية تتنافس على المرتبة الأولى في الردح والقدح والذم ونشر الغسيل القذر.

هل أعلنت الحقائق عن نفسها في غزة...؟!!!

٨ـ وطن القصيدة

غزة تحتفل بالوطن، فتكرم الشاعر الكبير أحمد دحبور..

كلية الآداب في جامعة الأزهر بغزة تكرم الولد الفلسطيني، وتقدم له الوسام، والولد الفلسطيني أُبعد عن مسقط رأسه في وادي النسناس بحيفا وهو ابن عامين، وفُطم تحت ضغط الحاجة قسرا في الشتات، ولكن ما رضعه من حليب قليل في حيفا زوده بطاقة الصمود في المنافي، وجعله يذوق حلاوة التمرد، فانضم إلى الثورة وظلت حكاية الأهل وشجرات الكينياء في البيت الأول ماثلة أمامه لم تفارقه، وعندما عاد إلى الوطن رجع إلى غزة ومنع من الصعود إلى الكرمل وارتسمت له الفجيعة من جديد، فاختار غزة، يرنو لبحرها الموصول ببحر حيفا، فالماء واحد، لكن ماء حيفا أول من عمده رضيعا؛ ولأن غزة وفية، كبرت بالولد الفلسطيني وصارت بمساحة الوطن، وأعادت المجد للأغاني والأهازيج والقصيدة، فكرمت أحمد/ القصيدة، فغزة ترى كل الأشياء بهاجس الأم الوفية، وترى في القصيدة العناوين والأسئلة كأوضح ما يكون.. أغرب ما في الأمر عجيب الوقت/ الحالة في غزة، فحراس بوابة الجامعة يحبون أحمد، ويحفظون أشعاره وأغانيه، وينظرون للوافدين للتكريم والقائمين على الاحتفالية شزرا، والمحتفون يحبون أحمد، ويحفظون أشعاره وأغانيه، ويعتبرون وجود الحراس نتاج وقت طارئ، عجبي لكِ ومنكِ يا غزة، سيمضي الحراس والمحتفون والمحتفى به، وستبقى غزة تردد أشعار الولد الفلسطيني، فهل من معترض؟!!

٩- متى يعود الشهداء

على العادة اليومية في غزة يحدث القصف والقصف المضاد.. يحتدم الاشتباك، ويسقط الشهداء.. وفي قصف ما أو اشتباك ما سقط شهيد ينتمي للوطن وحركة فتح، وسقط شهيدان ينتميان للوطن وحركة الجهاد الإسلامي.. وفي عرس شهيد حركة فتح" المسارعي" ألقيت متفجرة على المشيعين.. أخذت ثلاثة أُضيفوا إلى قافلة الشهداء، وهذا أقل حقهم، وجُرح عشرات أُضيفوا إلى جرحى المقاومة الباسلة وهذا أقل حقهم أيضا.. هذا ما كان من أمر مشهد الدم..

أما في المشهد الإعلامي فسار الأمر في سياق آخر.. عرض تليفزيون فلسطين من رام الله صور حية من مكان الحدث، ووجه التهم لحركة حماس، وعرض تليفزيون الأقصى لقاءات مع مواطنين ومسئولين تمحورت حول إدانة حركة فتح.. أعقب ذلك توقيف قيادي بارز في حركة فتح، واعتبار تصريحاته مثيرة للفتنة حسب تصريحات ناطق إعلامي من حركة حماس..

الغريب في الأمر أن الطرفين نسوا أو تناسوا ما قد يفعله العدو الجاثم على صدور الجميع، وكأن العدو استغنى عن الطابور الخامس لعدم الحاجة إليه.

والغريب في الأمر أيضاً، أن غزة كل غـزة تعـرف وتـرى وتسمع بعيدا عن وسائل الإعلام ما يجري على الأرض.

فهل يدرك الإعلاميون أن ليس كل الناس فتح، وليس كل الناس حماس...؟! وأن كل الناس في زمن الحصار لم يفقـدوا حواسـهم ولم يغادروا غزة بعد...!

فما رأيكم دام فضلكم في المطالبة بطواقم إغاثة إعلامية، ولتكن عربية وإقليمية، وحتى لا يساء الفهم، تشارك فيها مـصر وسـوريا والأردن من جهة، وإيران وسوريا وقطر من جهة ثانية، وحتى تعمل هذه الطواقم بكفاءة عالية تكون تحت إشراف جامعة الدول العربية.

عفوا: قررت سحب الاقتراح حتى لا يفسره الـبعض تـدخلا في القرار الفلسطيني المستقل...!

١٠. حقوق داخل القاعة

يعرض مركز إعلام المرأة مشكوراً سلسلة من الأفلام لمخرجات يتعرضن فيها للعنف الذي تتعرض له المرأة في دول العلم الثالث، واللافت أن معظم الحضور من الرجال الذين يناصرون قضايا المرأة..

في الأفلام تنتصر المرأة أو الفكرة، وتكسب المخرجات الجولة، وتكسب السينما الهادفة انجازات جديدة..

وخارج القاعة:

سألتُ صديقاً لا يتأخر عن عرض:

ـ لماذا لا يعرض المركز أفلاما عن العنف الذي يتعرض له الرجال والأطفال والشيوخ...؟!

ضحكَ صديقي من سذاجتي:

ـ ألم تصدق بعد أننا انتقلنا للعالم الرابع...؟!

وقبل أن أسأله:

كيف ومتى حدث ذلك...؟!

اختفى في العتمة.....

١١. حوار

غزة تصحو وتنام على أسئلة تفقس من بيض الفجيعة:

إلى متى سيمتد بؤس الحال...؟!

ومتى يبدأ الحوار...؟!

وعلى ماذا سيدور الحوار...؟!

يدرك الناس أن الحوار أشبه ما يكون بخصام أبناء رجل أفلس قبل أن يموت، وأوهم أولاده أنه ترك ثروة طائلة، وعندما يدرك الأولاد الحقيقة تكون الأضغان قد ذهبت بعافيتهم، ولم يعد في صدورهم مساحة للتسامح.. فيعيشون غياب المعاني وذهول الفجيعة..

فما معنى المؤسسة الأمنية في بلد مستباح...؟!

وما معنى الأمن والأمان في ظل الاحتلال...؟!

وما معنى فلسطينية القرار والأقدام انبرت لكثرة ما تسولت عطف العواصم.

وما معنى الوفاء والحياء والعفاف في حارات الفضيحة...؟!

لكن غزة الطيبة ما زالت تنام وتصحو على ذات السؤال:

متى يبدأ الحوار...؟!

وهل يصلح الحوار ما أفسده العطار ...؟!

١٣.أُضحية العيد

رغم عسر الوقت وشح الدخل استطاع أن يضحى هذا العيـد، وأسند توزيع الحصص لأولاده كالعادة، فلم يتبق من لحم الأضـــحية لمن هم أبعد من داره..

دُهش...، فالعيد هو العيد، الأضحية هي الأضحية...

فهل انخسفت البركة...؟!

راجع الأمر فاكتشف أن الأولاد قد أخذوا حصصا مـــضاعفة، وقبل أن يسأل أو يعاتب، تمردوا في وجهه:

ــ لم يدخل اللحم بيوتنا منذ العيد الفائـــت، والأقربـــون أولـــى بالمعروف.

أسقط في يده، وتضرع للواحد القهار أن يدخل اللحم كل دار..

١٣.العيد في غزة

أول أيام العيد ودعت غزة ثلة عزيزة من الشهداء..

وثاني أيام العيد ودعت ثلة ثانية..

وثالث أيام العيد حدث كذلك.

ودعت غزة فرحة العيد، وانشغلت كعادتها بوداع الأحبة، ورجع الناس إلى عاداتهم الأولى، يفتتحون يومهم بالسؤال:

هل من شهداء...؟!

وينتهي النهار بالسؤال:

كم بلغ عدد الشهداء...؟!

في العيد تبادل الناس التحيات، ولسان حالهم يلهج بالدعاء/الأمنية " أعاده الله علينا والأمة العربية والإسلامية باليمن والبركات.. والشهداء أيضا.."

هكذا هي غزة:

تجترح الزغاريد كما تجترح النواح!!

هل تسمرت القسمات عند لحظة فارقة بين الابتسام والعبوس؟

لكن غزة المكلومة/المثكولة تعض على النواجذ.. تتباهى بالألم.. وتعيش المفارقة..

من في البلاد والعباد مثل غزة فقرا وخوفا وحاجة...؟!

من في البلاد والعباد مثلها يصمد عاريا في وجه الحصار...؟!

ومن مثلها يأوي في حضنه الأخوة/الأعداء، ويخرج خلفهم عندما يذهبون شهداء/ أحياء عند ربهم يرزقون...؟!

وغزة من دون البلاد ومن دون العباد...

عندما يرخي الليل سدوله، ويلف السكون الموجودات، تكشف صدرها وتتضرع للواحد القهار:

اللهم خلصني من بلائي في أبنائي..

اللهم اجعلني أحيا العيد بدون وداع من أحب..

اللهم عوضني بتوأم شقيقين، وخلصني من توائم الحقد والدم..

رحماك يا رب البلاد والعباد...

رحماك.........

١٤- اتفاق خارج الحوار

اتفق الناس في غزة بدون الحاجة لجلسات حوار خاسرة، وبدون شروط مسبقة، بدون وسيط ولا رسم خارطة للاتفاق..

خرجوا وانتشروا في الشوارع والأزقة والحارات والأسواق الساحات.. تلفعوا بعلم واحد واعتمروا كوفية واحدة..

حدث ذلك في ذكرى رحيل أبوعمار/ ياسرعرفات.

خرج الذين أحبوه وشيعوه وبايعوه وساروا خلفه منذ الطلقة الأولى... وخرج الذين رافقوه الدرب الطويل وعارضوه وانتقدوه وترصدوا له العثرات..

وخرج الذين كم وضعوا في طريقه المعوقات بدعاوي الشراكة والمشاركة في قيادة المركب..

خرج الذين اختلفوا معه ولم يختلفوا عليه..

وخرج من دفع ضريبة الاحتلال والاقتتال وسواد الحصار..

ما الذي دفع الناس للخروج...؟!

باختصار: خرج الوطن يبحث عن رمز في زمن الندرة، خرجت غزة في وجه الرموز البديلة التي أصابها عمى الألوان، فخيل لها الوطن أصغر من مساحة زقاق..

باختصار: خرجت جموع الناس من بين الركام، تطير رسائلها إلى من يتوهمون أنهم أصحاب القرار في غزة/ في رام الله/ في الوطن وفي الشتات.

إن الذين خرجوا لا يطلبون من متاع الدنيا أكثر من كوفية وعلم. خرجوا يبحثون عن رمز يأخذهم إلى خارطة/ وطن.

طوبى لكل العاشقين الذين رضعوا فقط من صدر الوطن.

طوبى لغزة.....

١٥- في الاجتياح

يوم ٢٠٠٨/١/١٥ حدث اجتياح كالعادة، سقط سبعة عشر شهيدا وعدد كبير من الجرحى، وكان من بين الشهداء نجل القيادي في حركة حماس الدكتور محمود الزهار..

الدكتور الزهار علق الوسام الثاني على صدره، وقد أصبح أبا لشهيدين قضيا في سبيل الله والوطن.

كان الاجتياح عرسا داميا، خلف مأتما فلسطينيا كبيراً نال من القلوب، وصدع الأفئدة، وتدافعت الجموع إلى بيوت العزاء.

صعد الجميع على الجراح الصغيرة أمام بهاء الدم المراق، فالدم راية، وأرواح الشهداء ما زالت نابضة في الدروب...

دافئة لم يأخذها جليد الغياب..

كان الرئيس أبو مازن أول المعزين، وكانت مبادرة لاقت الترحيب من كل الناس باستثناء البعض الذين يرتعون في مساحات الخلاف، ولا يجدون مواقعهم إلا في الزوايا الضيقة من أجندات التواريخ الملتبسة.. لا يأبهون إلى سؤال الأسئلة:

هل يقبل الشهداء الخلاف حولهم والاختلاف عليهم؟

وهل يقبل الشهداء أن يتحولوا إلى استثمار رخيص في أسواق المزايدة؟ وهل يستهجن الشهداء كما استهجن البعض، أن يكون رئيس الشعب المنتخب أول من شجب العدوان وأول المعزين وأول من يعلن الوفاء للأرواح الزكية؟

وهل ينكر الناس، كل الناس أن الرئيس أبو مازن كان من أوائل المفجرين للكفاح المسلح قبل أكثر من أربعين سنة، متسلحا برؤيته الوطنية والدينية؟

أه من غصة في الحلق، وشكة في عين القلب يا وطن...

وطوبى لك يا غزة الباقية على الوفاء..

تكفكفين دموعك بعد كل مواجهة واجتياح..

طوبى لك يا سيدة البلاد.....

ويا حاضنة العباد.....

كل العباد.....

١٦. غزة موصدة الأبواب

أغلقوا المعابر في وجه غزة، حوصرت حتى عن ضـــرورات الحياة، لكن غزة في الحصار تمارس الحضور مع ألق الغياب..

تصبح حالة واسعة باتساع الحلم، ضيقة مثل حصيرة الفقراء.. عطشى تأخر عنها غيث السماء هذا العام..

هل دخلت غزة عتبة الجفاف...؟!

لا غذاء ولا دواء ولا وقود.. عزة تعـــيش علــــى بقايــــا دفء نبضها في عمق الشتاء.. هل سكنت غزة عنق الزجاجة...؟!

أم أصبحت عقدة الاختيار...؟! والاختيار إلى أين ...؟!

لا جواب.. والفضاء مزروع بزنانات ترصد الأحيـــاء قوافــل شهداء والموت على صدر غزة أعراس على الأرض وفي الأثيــر تبادل اتهامات.. هل تسير غزة حثيثا نحو إعلان الإمارة...؟!

هل تعود إلى عين فؤاد الوطن والصبر إشارة...؟!

ومتى تخرج غزة من لعبة الوقت التي اتخـــذت منهـــا ســـلعة للتداول في أسواق السياسة والشطارة ومواخير الدعارة...؟!

متى تفيق من ذهول الحالة وتسطر في الأجنـــدة قفـــزة نحـــو الوطن، وهي من تملك دوما تفاصيل العبارة...؟!

١٧. راصد محايد

فقرة من تقرير لمراسل اقتصادي

أجمعت تقارير المراقبين على تراجع تجارة المخدرات في غزة تراجعا مذهلا، ورواج سوق السجائر المهربة.

وأن تجار السوق السوداء تحولوا إلى تجارة السجائر إيثاراً للسلامة والربح الوفير، لاسيما وأن الوضع العام يبعث على النقرزة، وأن المعسل أصيب بالجنون.....

---

* نشرت هذه اليوميات في الصحف والمواقع الالكترونية في العامين ٢٠٠٧، ٢٠٠٨

الدفتر الرابع

مقامات غزية
"واقع الحال في ظل الاقتتال"
حكايات موجعة جدا

١. ظهراً لظهر كل ليلة

يستلقيان على السرير، طفلهما بينهما يحدق في وجهه مرة ويضحك ثم يحدق في وجهها مرة ويضحك...

ينشغلان معه في اللعبة، وينتظران ذهابه إلى النوم...

ينام، ويراقبان وردة ضاحكة نبتت على شفتيه..

يضحكان ويتلاصقان بطناً فوق بطن، ويشتاقان لوردة ضاحكة أخرى.....

هذه الليلة.. استلقيا ظهرا لظهر لم يكن بينهما الطفل.

ولم ينتظرا تفتح وردة ضاحكة تنبت على شفتيه؛ لأنه ذهب إلى نوم أبدي.. رصاصة عمياء أخذته أثناء الاجتياح..

٣- حارة القلب

مثل كل ليلة حلمت..

خرجت غزالة من حضن الفجر، حملها على خاصرته وانطلقا إلى البحر، حدقت في عينيه الشاخصتين إلى البعيد.. حيرها ما ترى الألق أم الوجوم..

أخذت تراقب أبا جلمبو الأبيض...

كيف يختفي تحت رمل الشاطئ قبل أن تدركه الموجة...؟!

وكيف يخرج بعد انحسار الماء...؟!

تعلقت برقبته واندست في حضنه، تنفست عبير عرق إبطه.. عبر بها في الماء، وقفا على صخرة تودع سلاحف الماء بيضها في كهوفها، وتعود في ربيع الفقس تحمل صغارها على ظهرها وتمضي.

في تلك الليلة رأت النورسة تعلم أفراخها الطيران..

ولم يكن معها نورسها الأبيض الجميل..

وفي تلك الليلة صحت فجأة على صوت قصف نال من حارة قلبها.. فهل عرفت ما حيرها في عينيه...؟!

إذا ما كان القلق أو الوجوم..؟؟

٣ - مسافة

زرعها قرنفلة بيضاء في بستان قلبه..

تفتحت وسكنه وهج الرحيق..

وليلة قرر قطع ما تبقى من مسافة إليها، صحا على صوت القصف.. وسقط في الذهول مع الخبر العاجل الذي أعلن عن مكان القصف، وذكر أن الحصيلة الأولى للضحايا، طفل.....

وعجوز.. وطالبة جامعية كانت تتهيأ لامتحانات التخرج.

٤ . غيبة

اتصل بها، لم تكن في البيت، ترك لها رسالة مسجلة:

ــ انتظريني الليلة.

وفي آخر الليل، اتصلت به.. لم يرد، تركت له رسالة مسجلة:

ــ انتظرتك حتى الفجر..

لم يتصل بها، ولم يرد على رسائلها المسجلة التي واظبت عليها تسعة أشهر.. وفي ليلة رأت القمر يضحك، اتصلت، فحاصرها صوته متعبا خجولا:

ــ أطلقوا سراحي الليلة فقط.

ــ والليلة وضعت طفلنا الأول..

٥- قصفوا البحر

حلمت الفتاة.

عيناها بحر، وثمة شاب افترش أديم الزرقة وأخذ يضرب الماء بدلال من يوقظ الغافيات..

والغافيات، كمشه أسماك ملونة بالفرح، خرجت من قبعة البؤبؤ.. صعدت إلى صدر الفتى..

ضحكت الفتاة.

صارت الأسماك سرب حمام بلون الثلج..

حوم الحمام حول رأس الفتى وانطلق صاعدا إلى السماء..

فجأة سقط الحمام بريش حالك السواد...

وهطلت الفتاة دمعا.. صار نهرًا..

٦ـ قبل وبعد

فكر حسام مليا، ثم قسم اللوحة البيضاء إلى قسمين بخط رأسي، رسم على القسم الأول شجرة برتقال كبيرة، تحمل ثمارا صفراء لامعة، ورسم على أحد أغصانها حمامة بيضاء ترقد على البيض في عشها.

ورسم على القسم الثاني من اللوحة شتلة برتقال صغيرة لها ظل صغير، ورسم في الظل زغلول عصفور صغير خرج للتو عفياً يسعى..

كتب حسام أسفل القسم الأول من اللوحة " قبل الاجتياح" وكتب أسفل القسم الثاني من اللوحة " بعد الاجتياح" ...

٧- غراب أحمر ليلة العيد

ثلاثة شبان في سوق المدينة/ غزة..

سأل الأول عن قميص بكم واحدة.. لم يعثر عليه في السوق، فاشترى قميصا بكمين، وشبح الكم اليمنى بدبوس عند الكتف.

وسأل الثاني عن بنطال برجل واحدة، لم يعثر عليه في السوق فاشترى بنطال برجلين وشبح الرجل اليمنى بدبوس عند الخصر.

وجاب الثالث السوق عدة مرات فلم يعثر على قميص وبنطال على مقاسه، فزمجر متوعدا الناس والتجار..

حضن الشاب الأول الشاب الثاني ومشيا في السوق جسدا واحدا برجلين وذراعين.. صفق الناس وتجار السوق لهما، فتحول الشاب الثالث إلى غراب أحمر..

تطيَّر منه الناس في المدينة.. وما زالوا يتطيرون..

٨ـ قرنفلة حمراء

سألتها قارئة الفنجان:

ـ هل حلمت يا صبية...؟!

ـ جاءني بحلة بيضاء وعلى عين صدره قرنفلة حمراء

غادرت العرافة المكان على عجل قبل أن تذرف الدموع على شاب نحره الملثمون، فانبثقت من صدره قرنفلة حمراء ...

٩- حمامة بيضاء

في حارتنا شاب وسيم الطلعة، وشاب دميم الخلقة..

وفي حارتنا تهامست النساء في أمر الجميلة التي وقعت في غرام دميم الخلقة، وأعرضت مع سبق الإصرار عن الوسيم.. فلجأن لعرافة الحارة.. قالت العرافة:

ـ عين العاشق في قلبه.

وفي صباح ما، حاصر صبيان الحارة بيت الجميل ورجموه بحجارة نفايتهم، لأن أفراخ غراب يسكن صدره، انقضت على زغاليل حمامة بنت عشها في صدر الدميم..

١٠. حفيد

تحت شجرة وقف عجوز يراقب الطريق، وخلف جذع شجرة مقابلة وقف طفل يضم كفه الطرية على شيء ويراقب الطريق.. بين الشجرتين طريق إسفلتي عريض.. مرت سيارات الجنود، فارتخت قبضة الطفل عن الشيء الصغير، وسجل العجوز اسم شهيد على جذع شجرته، وفي غمضة عين انبثق طفل آخر خلف جذع الشجرة المقابلة، وكان يضم قبضته الصغيرة على شيء صغير..

١١ـ امرأة

في حرب ما ترملت وفي حضنها طفلين.. كان زوجها جنديا في موقع متقدم.. تعرض لقصف شديد.. لم يعثروا على رفاته، فأقاموا من أجلها وأجله نصب الجندي المجهول.. وفي اجتياح ما ثُكلت في أحد ولديها، وتحت ضغط من الأهل التحقت زوجة ابنها الشهيد برجل آخر، وتركت طفليها في حجر جدتهما..

وفي اقتتال ما وقفت المرأة/ الجدة بين بندقية ابنها الثاني وبندقية ابن الجيران، فانطلقت رصاصتان في ذات اللحظة اخترقتا صدرها.. قيد حادث مصرعها ضد مجهول..

وقيل إن حفيديها نقشا لها تمثالا، ومُنعا من رفعه على منصة الجندي المجهول!

١٣. زقاق اللعنة

زقاق ما يتفرع عن شارع ما، في مدينة ما.. يسكن أول الزقاق أصولي متشدد، ابنه علماني عنيد، وفي آخر الزقاق يسكن علماني متشدد ابنه أصولي عنيد..

في يوم المعمعة أعرض الآباء عن الأبناء، وتحاشى الأولاد النظر إلى وجوه الآباء، فأصيب ناس الزقاق بالهلع، وتهامسوا:

ـ من سيقتل أباه أولا!؟ ومن سيصدر حكم الإبادة على ابنه أولاً!؟

وفي آخر النهار، أقيم سرادق عزاء في أول الزقاق، عُلقت فيه صورة لشاب حليق بهي الطلعة، وأقيم في آخر الزقاق سرادق عزاء عُلقت فيه صورة لشاب ملتحٍ بهي الطلعة أيضاً..

وما زال الناس في المدينة يتساءلون:

"من قتل من في زقاق اللعنة...؟!"

١٣. الضحك

كان الحكام العرب والمفكرون العرب ضيوف فيصل القاسم في برنامج الاتجاه المعاكس، لكن خللا طارئا حدث عند بـــدء البرنـــامج توقف على أثره البث دقيقة واحدة فقط..

ظهر بعدها البرنامج بترتيب جديد، ظهر فيه الحكام والمفكرون العرب في جهة وفيصل القاسم في الجهة المقابلة، وكان يدير البرنامج مذيع غامض، يعتمر طاقية غريبة مكتوب عليها وباللغة الانجليزيـــة "الضحك" ....

١٤. برعم

في حديقة الجامعة وقفا عند شجرة ورد جوري تتهيأ لإطلاق نوارها.. كانت براعم الشجرة خضراء لامعة وعفية..

قالت:

ـ متى نلتقي؟

ـ عندما يتفتح هذا..

وأشار إلى برعم انبثق من إبط شوك.. لكن البرعم انطفأ فجأة بعد قصف جوي مفاجئ.

١٥- أحلام الفتى

صعد الفتى إلى قمة الشجرة، وجد حمامة ترقد علـــى بيــضها مطمئنة، أخذته إلى صدرها فتعرف على لبن البراءة...

وصعد الفتى إلى قمة الجبل، فانفتح أمامه المدى عـــن هـــلال يحضن نجمة، وعن نجمة صبية هبطت من السماء وطارت به فصار هلالاً يحضن نجمة..

وقصد الفتى قمة العرب زاده العشق والبراءة..

انتظر طويلا حتى خرج له رجل بلا وجه أعطاه سلما وأمـــره بالصعود إلى الهاوية..

١٦ـ الريح

نسمة طفلة سألت الريح:

ـ متى تفرح يا ريح...؟!

ـ عندما يسري ماء الحياة في البراعم.

ـ ومتى تحزن...؟!

ـ عندما ينحبس الغيث.

ـ ومتى تغضب...؟!

ـ عندما يستبد الظلم بالرحمة.

فجأة سكنت الريح، وفجأة احتلت غيمة صفراء سماء المدينة، وفجأة داهم نسمة اختناق مفاجئ وجحظت عيناها على سؤال أخير:

ـ هل يموت الريح يا أبي...؟!

١٧- زمن

تفتح برعم الوقت عن وردة.. أطلقت أريجها نـــسمة حالمـــة.. انفلتت النسمة من نافذة الوقت تبحث عمن يرسم ملامـــح وجههـــا.. هبطت النسمة على شجرة جفت أوراقها على دموع الذهول.. يستظل بعريها فتى بلا وجه.. همست النسمة:

ــ لِمَ تتدثر بالعريِّ!! ومن تكون...؟!

ــ انا زمن، أعيش انتظار عودة وجهي المسروق.

ــ ومن سرق وجهكَ يا زمن...؟!

ــ الذين يحترفون البارود.

سكنت النسمة إبط زمن، فأورقت الشجرة، وتجلى وجه الفتى، وأخذ يرسم ملامح النسمة، ووقعت الشجرة في حيرة الـــسؤال...... وما زالت تردد: " وجه النسمة ما أرى أم وجه زمن...؟!"

١٨ـ مقارنة

في الصباح رأى الطفل شاب بهي الطلعة يتوكأ علـــى عكــاز، وقد شبح رجل بنطاله اليسرى إلى أعلى.. تساءل الطفل:

" من الذي سرق ساق الشاب ...؟!".. وبكى....

وفي المدرسة كان درس العلوم عن حيوان وحيد القرن..

سأل الطفل المعلم عن الفرق بين وحيد القرن ووحيد الساق..

بُهت المعلم وتمتم في سره "حتى لا يخدش براءة الطفل"

"وحيد القرن وهبه الله قرنا صلبا حادا ليقهر به الأعــداء...... أما وحيد الساق فهو المقهور من ذوي القربى.. "

١٩. بينونة

ضحكت له الدنيا، فألقى بيمين الطلاق على زوجته..

وعبست في وجهه الدنيا، وفرغت يمينه وشماله، فألقى بيمـــين الطلاق على زوجة جاره، وأخذ يقاتل طواحين الهواء....

ولا يزال......

٣٠ـ الولد

في الغفوة نادى:

ــ يا ولدي..

وصحا على زوجته تدق صدرها مولولة، وتشهق:

ــ يا ولدي..

ما بين الغفوة والصحو رشقت الطائرة الزنانة رشــقة مــوت، وأعلن الراديو عن ذهاب شاب على سهوم مفاجئ.

٣١- وردة

توأم ينشغل الأول بإطلاق لحيته...

والثاني بالتحديق في بهاء وجهه..

في الليل ينامان على وسادة واحدة.. ظهرا لظهر ينامان، يستعيدان ما سمعا من وصايا في الدروس..

وفي ليلة جربا النوم وجها لوجه، فانبثقت على الوسادة بينهما وردة بيضاء مثل وجه أمهما تماما..

٢٣. عصفورة

بنت العصفورة عشها على هامة الشجرة..

وضعت العصفورة بيضتين..

بعد قصف ما اختفت العصفورة.. لم تعد إلى الشجرة..

وبعد عدة أيام فقست البيضتان عن زغلولين يتلفعان بزغب رهيف، وينظران للناس في النهار بشوق..

فجأة هلل الناس في مدينتنا لعصفورة بيضاء تعلم طفليها فن الطيران ضد اتجاه الريح..

٢٣ـ أمير

حلم طويلا حتى وصل إلى سدة الحكم..

نصب نفسه حاكما بخدعة..

انسدت عليه السبل، فاستبد، وجأر صارخا في الناس:

ـ أنا الأمير.. أنا الملك.

ما زال يجأر..

لم يسمع حتى اللحظة من يقول:

ـ "السمع والطاعة لمولاي الأمير.."

٣٤. السلطان

سألت عن معنى الحيــاة، فأصـــدر القاضـــي بحقهــا حكمــا بالصمود.. سألت:

ـ كيف...؟!

ـ هذا شأن سلطة التنفيذ.

سحبوها من قفص الاتهام إلى المسلخ..

ذبحوها.. قطعوها.. ووضعوا لحمها طازجاً في عبوات.

وفي الليل وزعوا العبوات على الأسر المستورة هبة من السيد السلطان .....

٣٥. سائس

لم تمر سيارة تقلهم إلى حيث يريدون.. قال أحدهم:

ـ طبعاً.. لا وقود؟!

تبادلوا نظرات التوجس والحذر.. انضمت إليهم امرأة حامل، وشاب لم يتوقف عن النظر إلى ساعة يده، ولم يتوقف تليفونه المحمول عن الرنين..

صرخت المرأة، عضت ثوبها، وهبطت على الأرض.. اندلق منها سائل أصفر، شفطه تراب الرصيف..

مرت بهم عربة يجرها حصان هزيل، يسوسه عجوز ضرير.. رفعوها إلى العربة..

أغلق الشاب تليفونه وقبض على لجام الحصان...

وانطلق يعدو بأقصى ما يستطيع..

٣٦ـ العدل

تقاعس عن نفقة البيت، انشغل بشاربيه.. قال:

ـ اصبري الوقت صعب...

باعت مصاغها وعفش الدار.. برم شاربيه.. وقال:

ـ اصبري..

باعت آخر ملابسها، وقفت عارية.. قالت:

ـ أخذتني كاسية بالحلال.. فإن لم تستطع اعتقني بأبغض الحلال..

لبس عباءته ورفع شاربين يقف عليهما الصقر.. نفخ هازئاً:

ـ لن تكوني فضيحتي.

واعتلى المنبر وأقام عليها الحد بالموت جوعًا.

٣٧. لا تدق الباب عليّ

عن الفتى الذي خذله الوقت فنادى:

ـ يا أنتِ.. أينَ أنتِ..

ـ لا تدق عليَّ بابي يا فتى! سقطت شمسي في جب عميق.. أخذوا مني أساوري وخلاخيلي.. زينوا بها أمة فارسية من سبايا بني أمية.. لم يعد الفجر ينقر على نوافذ عصافيري مع تسابيح الصلاة، لم يعد بي شبق للرقص حتى الثمالة.. مضغوا لحمي هل عثروا عليكَ...؟!

ـ هم يحيطون بي الآن، خرجوا عليَّ من كل صوب، صفدوني.. يقتادوني لا أدري إلى أين...؟!

ـ لا عليكَ يا فتى.. إن مررت على ما تبعثر مني، رتل كلمة سر العاشقين.. وتجلد.

وقيل عن الفتى الذي زوادته الصبر وبعض الغناء:

إنه ما زال يردد..

٣٨. رقبة وثلاثة مشانق

نادى المنادي، فتدافع الناس إلى ساحة السوق..

في الساحة نصبت ثلاثة مشانق، وأقيمت المنصة..

أحضرت الشرطة متهما واحدا فقط.. اعتلى القاضي المنصة.. قرأ حكما بالإعدام شنقا على ثلاثة متهمين.

علقت الشرطة عنق المتهم في حبل المشنقة الأولى.. تدلى الرأس وسقط على الأرض وظهر للناس وجه كهل بلحية بيضاء..

علقت الشرطة رأس المتهم في المشنقة الثانية.. تدلى الرأس وسقط على الأرض وظهر للناس وجه شاب وسيم..

علقت الشرطة المتهم في المشنقة الثالثة.. فأضاء عن وجه طفل لم يغادر صدر أمه بعد..

ولا يزال الناس يختلفون حول:

هل تم إعدام متهم واحد أم ثلاثة متهمين.....؟!

٣٩. لا يزال ينـتظر

الطفل شغوف بلعبة كرة القدم.. ينفخ في صفارته كلما سجل أي من الفريقين هدف.. وفي يوم ذهب إلى الملعب فلم يجد إلا فريقـا واحدا.. ولم يكن هناك حكم...

سأل الطفل مدربا عجوزا.. انشغل بري نبتة صغيرة:

ـ أين سيقف الحكم يا سيدي...؟!

ـ خلف الصفارة يا ولدي.. في مكان ما خارج الملعب

ـ ومتى يحضر الفريق الثاني.....؟!

انشغل العجوز بري النبتة، وانشغل الطفـل بانتظـار الفريـق الثاني لينفخ في صفارته..

وما زال ينتظر.....

٣٠. بدائل

عجز أخصائي التصوير بالأشعة عن تحديد ماهية الهالات السوداء الكثيفة التي كثر ظهورها في صور رئات الأطفال الرضع.. لاذ بمراجعة الطبية وبقي السؤال معلقا...

في المساء جلس يتابع الأخبار على شاشة الفضائية ـ التي يحبها ـ وما زال سؤال الهالات الغريبة يلح علية على الشاشة المضيئة.. أطل دولة رئيس الوزراء ـ الذي يحبه جدا ـ وأعلن دولته عن عظيم غبطته وتقديره للعبقرية الفلسطينية التي قدمت سابقة علمية في تكنولوجيا المحروقات باستخدام السيرج بديلا عن البترول في مقاومة الحصار..

فجأة ذهل الاخصائي... وقرر مقاطعة مراجعه العلمية التي لم تستطع التوصل إلى سبب ظهور الهالات الكثيفة السوداء.

٣١. خذلان

أعلن الناطق الإعلامي لهيئة البحث العلمي في غزة عن التوصل إلى الميكروب الذي يسبب ظهور البقع السوداء الكثيفة في رئات الأطفال الرضع، والذي سجل في دائرة الشهر العقاري ومصلحة الطابور وذلك لعدم لغياب دائرة الملكية الفكرية في الوطن تحت اسم جرثومة سيرج z ..

كما أعلن عن التوصل إلى عقار طبي يقضي عليه سجل تحت اسم انتي سيرج x ....

ما لم يعلن عنه الناطق هو رفض مراكز البحث العلمي الاكتشافين، وكذا اعتذار اتحاد الصناعات الدوائية العربية عن إنتاج العقار المضاد لأسباب سياسية أساسية.

منها أن على الشعب الفلسطيني في غزة الصمود حتى الموت، وكذا لأسباب اقتصادية بحتة، أهمها أن سوق التوزيع صغير جدا لعدم انتشار الميكروب خارج حدود غزة.

٣٢. أنثي سبيرج

تناقلت الأخبار عن مصادر موثوقة في مجلس الوزراء المصغر لدولة العدو أن سكان المستوطنات المحيطة بقطاع غزة يعيشون حالة من الذعر الشديد ويطالبون نقلهم إلى عمق البلاد بأقصى سرعة، ليس بسبب صواريخ المقاومة ـ على أهميتها ـ ولكن هذه المرة بسبب تفشي ميكروب يسبب تدميرا سريعا لأنسجة رئات الأطفال الرضع..

وتناقلت الأخبار عن مصادر موثوقة أيضا أنه تم تكوين لجنة طوارئ لتطعيم كافة سكان المستوطنات، والتعامل مع الحالات التي ظهر عليها المرض بأقصى درجات الحيطة والحذر والسرية أيضًا..

٣٣. بامية

وأخيرًا عثرتُ عليه وأهديته لزوجتي العزيزة بمناسبة عيد زواجنا.. قرص سخان يعمل على الكهرباء بعد أن فُقد الغاز من البيوت والمطابخ.. قررت زوجتي العزيزة أن تكافئني بطبخة بامية أشتهيها منذ بداية الحصار..

في اليوم الأول انقطع التيار قبل أن ينضج اللحم المجمد طبعا.. انتظرنا حتى تمكن القرص من إنضاج الطبخة مع آذان صلاة العصر في اليوم الثاني.. وقررت زوجتي العزيزة مكافئتنا بكوب من الشاي بالنعناع البلدي، فانقطع التيار الكهربي..

وما زلنا ننتظر الشاي لليوم الثالث على التوالي..

ما يعزينا.. أن طعم البامية ما زال عالقا في حلوقنا لغياب الماء، وأن يوم البامية أصبح تاريخا مشهودا يفصل بين مرحلتين من تاريخ أسرتنا..

فما حدث قبل البامية يختلف بالقطع عن ما حدث بعد البامية.

٣٤. الأوائل

في برنامج أوائل الطلبة مثل مدارس الإناث ثلاث طالبات متفوقات، ومثل مدارس الذكور ثلاثة طلاب متفقون، واقتصرت الأسئلة على سؤال واحد:

ـ ما هو الضحك...؟!

قال الطالب الأول: الضحك هو أن تعيش في غزة..

وقالت الطالبة الأولى:

الضحك أن ترى الموت في غزة لعبة يومية...

قال الطالب الثاني:

شيء غامض نسمع عنه ولا نمارسه في غزة...

قالت الطالبة الثانية: ربما يشبه ما يصدر عن الأطفال عندما يشاهدون برامج الصور المتحركة

وقال الطالب الثالث:

الضحك حالة نعيشها في الخيال، ونفتقدها في الواقع

قالت الطالبة الثالثة: لا أعرفه لأنني لم أمارسه يوما.. ربما هو الصوت الذي يصدر عني في غفلة مني ولا أفهمه..

غرق الحكم في الضحك وأعلن النتيجة بالتعادل..

٣٥. طموح

في الحلم حفروا حفرة عميقة.. قال الأول:

ـ سأواصل حتى نبع الماء العذب.

وقال الثاني:

ـ لا يوقفني عن الحفر غير نافورة البترول.

وقال الثالث:

ـ سأعثر على مغناطيس الأرض تحت خط الاستواء وإن طال المدى.

طتهم أمهم بلحاف بالٍ، وقضت الليل تفكر في تدبير مصاريف الغد بعد أن أوقفت وزارة الشئون الاجتماعية عنهم المعونة، بسبب بلوغ أكبرهم السن القانونية للعمل...

٣٦- إجماع

كان الاستفتاء الأول حول سؤال واحد:

ـ ماذا تعني كلمة شرعية...؟!

أجمعت معظم الإجابات على رد واحد:

ـ مسسسسسسسخرة

وكان الاستفتاء الثاني حول سؤال واحد أيضا:

ـ ماذا تعني كلمة حوار...؟!

أجمعت معظم الإجابات على رد واحد أيضا:

ـ مسخرااااااا

٣٧- ذهول

سألت المعلمة الأطفال:

أى البوابات تبقى مفتوحة على الدوام...؟!

رد الأطفال بصوت واحد:

بوابة الموت..

قالت المعلمة هذا ما لا يُختلف عليه.. وبكت.

٣٨. النخلة

سأل العصفور أمه:

ـ لماذا لم تطرح النخلة رطبا هذا العام يا أمي...؟!

ـ لأن الريح أخذت غبار الطلع بعيدا، ولم يعقد الثمر يا صغيري..

أخذته تحت جناحها وألقمته بقايا حب مدخر.. قالت:

ـ انظر يا صغيري ما يحدث على الأرض.

كان شابان يلعبان لعبة الموت...

وكانت الريح تفر بعيدا عنهما..

٤٠- حضور

في حفل توزيع الجوائز علــى طــلاب المرحلــة الابتدائيــة المتفوقين، حضر الوزير وعلية القوم.

وعندما نودي على الطفل الفائز بالمرتبة الأولى ساد الوجوم.. ثم هز التصفيق أرجاء المكان الطفل غيبته قذيفة يوم الاجتياح..

٤١ـ إلى الأبـد

عندما ضربوا البيت بالمسيل للدموع.. شهق العصفور وهمـد، وشهقت الطفلة نسمة التي كانت تلاعب عصفورها، وأغمـي عليها فنقلوها إلى المستشفى..

أفاقت نسمة.. سألت عن العصفور..

ضحكوا.. وبكت ...!!

٤٣.في البورصة

في الأسبوع الأول من العام الأول تساءل الناس:

ــ كم يساوي الجندي الإسرائيلي الأسير شاليط...؟!

رد البعض بعنجهية الواثق:

ــ يساوي تحرير جميع الأسرى.

وفي الأسبوع الأول من العام الثاني تساءل الناس:

ــ كم أصبح ثمن شاليط...؟!

رد البعض على تأتأة المتردد:

ــ تحرير بضع مئات من الأسرى..

وفي هذه الأيام يصيب الوجوم المتابعين لسوق الأوراق المالية من تدهور ثمن شاليط الذي فاق تدهور سعر الدولار أمام الشكل..

أما بقية الناس ما زالوا مشغولين في تأويل خبر عاجل بثته فضائية الجزيرة عدة مرات لعدة أيام يقول:

" إن شاليط شاط شلوطا شلط.."

٤٣. منطق

قال الواثق:

ــ .. لقد فرضنا التهدئة على العدو من منطق قوة .

رد المتشكك:

ــ وما الدليل...؟!

ــ أننا سنفتح معبر رفح بالقوة عند الضرورة.

ــ ولماذا لا نفتح معبر إيرز...؟!

ــ يا للغباء فاليهود هناك!!

ونحن نحترم التهدئة حتى لو.....

٤٤. سؤال الفتى

سأل الفتى معلمه القدير:

ــ مع من وقعت دولتنا الرشيدة اتفاقية التهدئة يا معلمي...؟!

رد المعلم بثقة العارف:

ــ مع دولة الكيان ....

فكر الفتى مليا.. سأل:

ــ وما الذي يجبرنا على الاتفاق مع وهم مزعوم...؟!

ضحك المعلم لسذاجة الفتى.. ربت كتفه قاطعا عليه الطريق:

ــ عندما تكبر يا فتى تفهم السياسة، وتعرف الفرق بين دولة الكيان ودولة اليهود.

سقط الفتى في جب الحيرة ....

وما زال يبحث عن عدو مقاومة فرض عين..

٤٥- واحده تغني

واحدة تشرب القهوة ممزوجة ببترول العرب..

تتجشأ في نواصي الشانزليزيه أشباه الرجال..

وواحدة تمزج قهوتها بحليب النوق..

تحلم باجتياز الربع الخالي إلى مرج الربيع في أندلس العرب..

وهو بين الواحدتين يقضي عقوبة بالسجن، ويغني لواحدة في مخيم لاجئين، تسكن قلبه.. وتغني..

ـ لا تبالي يا فتى.. أنا من تعرف طعم جوعك..

٤٦.سلة غذائية

أعلنت المخابز الإضراب واختفى الخبز من السوق..

لم يكترث الناس لغياب سلعة كمالية، فقد تعودوا على غياب اللحوم والأسماك وحليب الأطفال و..

.. واقترح خبير في التغذية سلة غذائية بديلة تضم الشاورما، والكنافة وأنواعا نادرة من الفواكه المجمدة، وراعى أن تناسب السلة المقترحة متوسط دخل الأسرة الغزية والعادات الاستهلاكية الفلسطينية، ورضاء الحكومة والدول المانحة.

والحد من عدد المخابز لتوفير الطاقة والقضاء على التلوث..

الغريب أن أصحاب المخابز أيدوا السلة الجديدة، ولكنهم واصلوا الإضراب..

٤٧. النظارة

مدربة الأطفال شابة رقيقة حالمة وتحب الأطفال.. أغمضت عينيها خلف نظارتها الطبية ونشرت رموشها مثل ضفيرة الحلم.. امتطت قوس قزح، وعاشت البهجة حتى الامتلاء..

رفعت المدربة النظارة عن عينيها فاشرأبت رموشها على صمت الحيرة المرسوم على وجوه الأطفال.. ضربها السؤال:

" كيف تبدأ ...؟!"

زقزقت طفلة:

ـ هل كنتِ نائمة يا معلمتي...؟!

عثرت المدربة على طرف البداية.. قالت:

ـ كنت في السماء أحلم.

ـ هل رأيتِ الزنانة التي تقصف الأرض...؟!

٤٨- من سِفر غزة

.. وفي سِفر غزة كُتب:

مقتطف ١

"…. قبل ألف عام.. قبل الطوفان الثاني كانت غزة مدينة عامرة زاخرة عامرة.. وكانت الصبايا يسرن الهوينى في طريق الجامعة.. سارحات/ دافئات مثل طلة شمس الصباح.. يتمايلن..على وقع مشاكسة عصافير فتيان رقدت في أخدود ما بين النهدين..و.."

مقتطف ٢

".. واحدتين من الصبايا تسيران على سهوم وجع الغضب من عصفورين طارا يوم المعمعة اختصما وتصارعا، حتى سقطا صريعين.."

مقتطف ٣

" ..يتناقل الناس في غزة حكاية عصفورين قتلا يوم المعمعة وتحولا إلى غرابين، ما زالا يحومان في سماء المدينة.. "

٤٩ـ إشارة

أمام الإشارة الحمراء عند المفترق توقفت العربات والعجلات امتثالا، لكنه ظل على اندفاعه نحو الشرق.. رجل صغير بلا ساقين، وبلا لحية يعتمر كوفية، يدفع عجلته بثقة.. وعندما أصبح بمحاذاة الناصية الأخرى توقف قليلا أمام جندي ملتح كان يراقبه وهو يقطع الإشارة.. رسم على شفتيه ابتسامة هازئة وواصل الاندفاع فيما نكس الجندي بصره نحو الأرض..

٥٠ـ جواب

سألت المعلمة التلاميذ:

ــ ما الفرق بين رُكب والرُكب...؟!

هتفوا بصوت واحد:

ــ رُكب أشهر محلات بيع البوظة" الآيس كريم" في مدينة رام الله، أما الرُكب فهي أشهر لعبة يمارسها المسلحون في غزة..

الدفتر الخامس

من كتاب الحرب والموت

موت المكان

.. والوقت على بعد شهقات من نهاية الكون.. ظهر في غـزة شاب في بهاء اليسوع وصرامة ابن الخطاب..

قيل إن أجمل جميلات المدينة والجوار غادرن خدورهن علـى عجل عاريات عامرات بالشهوة والرغبة.. تبعنه حتى وصـل إلـى رابية من رمل محروق تطل على البحر..

أشار لهن بالتوقف عند سفح الرابية وواصـل صـعوده إلـى القمة.. مسح المدى بعينيه وشخص شمالا نحو عسقلان، فـلاح فـي الأفق طائر النورس الأبيض، حلق الطائر فوق الرابيـة، ودار سـبع دورات ثم حط على كتف الفتى وأخذ ينظر للجميلات تـارة، وإلـى موج البحر تارة.. قال الفتي:

ــ ما حاجة الجميلات...؟!

هتفن متوسلات:

ــ نستبضع منك.

ــ اللعنه!.. وفحولكن؟!!

ــ بذرونا الدم والوهم، وأجنة البوم والغربان، وأهازيج النواح.

ــ إذن تيممن بتراب الرابية وادخلن الصيام حتى أعود.

طار النورس باتجاه عسقلان، فانشق جلد السماء عن برق ورعد، وأجهضت الغيوم عن مطر من دم أسود، فحاصر الجند المكان، وعلقوا النساء من جدائلهن صيدا مجانيا لجوارح الليل..

واختلفت الروايات حول مصير الفتى..

وقيل إنه خرج من بطن الحكاية في فصل المطر..المطر..

قال جدي عندما اختلفت مع أخي على كسرة خبز:

ـ احذروا جفاف الوقت!!

.. وجف شتاء المدينة، فخشع الناس.. ابتهلوا وصلّوا في العراء صلاة الاستسقاء.. استجابت السماء، وأجهضت الغيم عن غيث وفير لم يتوقف نهارين وليلة.. فغرقت المدينة وصارت الشوارع سيولا دافقات حبست الناس في البيوت، وضرب البرد العباد مع غياب الوقود، والكهرباء، وحطب المواقد والمجامر.

تساءل الخلق:

ـ هل هو غيث غضب..! أم غضب رحمة.....؟!

ولم يستجيبوا لدعوة منادي الأمير لإقامة صلاة وقف المطر.. ومنهم من تجرأ وصرخ في وجه المنادي:

ـ كيف نسأل الله أن يرفع عنا رحمة السماء...؟!

فقبضوا عليه وسحلوه.. فاختلفت مع أخي حول طريقة السحل، ولم نتوقف عن الشجار حتى مات الرجل.

ضحك جدي:

ـ هدنة مؤقتة يا صابئان..!! كيف يسحل الأخ أخاه....؟!

وجدي هذا صام عن الكلام منذ أكثر من ستين سنة، وصبر على جور صقيع الثلجة* التي ضربت خيام اللاجئين في الهجرة الأولى.. فقد خلع ثوبه الوحيد، وقضى الليل عاريا كما ولدته أمه ليس عن جنون أو بلل لحق ثوبه، أو حتى نجاسة طارئة.. بل لأنه لف بالثوب ابنه الذي باضته جدتي عسرا تلك الليلة، وابنه هذا هو أبي الأعسر الوحيد بين إخوته والذي ورثته الثلجة أخف الأذى، فأصبح المحسود بين أقرانه، إذ أورثته الثلجة اصطكاك الأسنان كلما وقعت عينه على قطعة ثلج أو لامست شفتاه الماء البارد؛ لذلك كان جدي يقول:

ـ لن تفارق عبد الله الرجفة حتى يتدفأ على نار حطب زيتون عسقلان عند أعتاب ولي الله الشيخ عوض..

وبعد أن حلت النكسة بالعرب وتوحدت الأراضي الفلسطينية من جديد تحت الاحتلال.. قال جدي:

ـ لعله خير..

وفي أربعينية أول شتاء أعقب النكسة اصطحب ابنه الذي هو أبي عبد الله إلى المقام واحتطب من فروع الزيتون فروعا جافة وأشعل النار.. وأمر عبد الله أن يتدفأ على النار عاريا كما ولدته أمه بين يدي صاحب المقام "الذي لا يخذل طالب رحمة أو صاحب حاجة" ولكنهم حاصروا المقام واصطحبوا أبي عاريا.. ورجع جدي بثياب أبي صامتا وقضى أبي عقوبة السجن بتهمة التخريب.. وظل أبي في حيرة من أمرة يبحث عن سبب اعتقاله وما زال.. ولكنه سجل في

القوائم الأولى من المعتقلين.. فتباهينا به وأصبحنا أبناء المناضـــل.. ومرت الأيام وكبرنا أنا وأخي حتى اختلفنا.. فتحجرت الـــدموع فـــي مقلتي جدي منذ نشب الخلاف بيني وبين أخي على كـــسرة الخبـــز، واندلقت دموعه مثل سيل.

عندما دخلنا معمعة الاقتتال.. وفي يوم خرجنا مـــن المعمعـــة مصابين.. فخرج جدي عن صمته.. قال:

ـ على ماذا الخلاف...؟!

ـ على نار آذار وصقيع حزيران

ـ وعسقلان...؟!!

صرخ جدي.. وسقط..

أخذتنا الصرخة إلى الصمت.. نهض جدي.. تعرى كما ولدته أمه.. وأقام صلاة الاستخارة وحيدا..

توضيح:

*عام الثلجة في تقويم أهالي غزة هو العام ١٩٥٠ حيث تساقط الثلج بصورة لم تعهدها الديار الغزية وسببت الـــريح اقـــتلاع خيـــام اللاجئين، ما نتج عنه موت عددًا كبيرًا من العباد أغلبهم من الأطفال الرضع، ولأن تسجيل المواليد كان بذخا تعرفه المدينة فقـــط اعتبـــر الناس عام الثلجة فاصلا بين ما قبله وما بعده، وأبي الذي هو عبد الله من مواليد الثلجة.

* مقام الشيخ عوض موجود في عسقلان يطل على البحر، وقد تحول إلى خرابة بسبب الإهمال بعد النكبة الأولى.

ومر ألف عام

تناقل الناس في غزة أخبار فريق الآثار المكلف من الدول المانحة بالتنقيب عن غزة المطمورة بعد الحرب، وأن علماء الفريق أمام اكتشفوا أكثر من غزة مطمورة تحت الأرض، ووجود أكثر من رابية قوامها الرمل المحروق.. لكن الرابية التي وقف عليها الفتى لا تزال ينبعث منها إشعاعات من بقايا مقذوفات القصف الأخير.. وقيل خلافا نشأ بين أعضاء الفريق، فانقسم إلى فريقين:

الأول مع تجريف الرابية لمعرفة المطمور تحتها..

والثاني مع عدم التجريف حفاظا على البيئة وجماليات المكان، أصبح الرمل المحروق الذي صار أهم عناصر الاستثمار.

وجلب أموال الصدقات.. لكن الطرف الآخر حسم الأمر خشية أن يتحول موضوع الرابية إلى موضوع استراتيجي كوني، فأرسل سربا من قاذفات إف ١٦ جعلت الرابية أثرا بعد عين..

وقيل إن الفتى ظهر بعد القصف في ذات المكان محاطا بأرامل الشهداء، يستعطفنه الاستبضاع بعد أن أجهضن أحمالهن بفعل القصف.. فصرخ بهن:

ـ اللعنة ...!!

وصعد إلى السماء، وترك تحت موطئ قدميه بئر الماء الأسود.. وتساءل الناس في غزة عن أصل الماء الأسود ولم يصلوا إلى يقين، لكنهم راحوا يرددون ما سمعوه من عجوز عسقلانية أخذ قصف ما في زمن ما بعض عقلها.

وأبقى على بعض جنونها.. فاختلط لديها الوهم باليقين.

الماء الأسود

يتناقل الرواة، أن البلاد الغزية تعرضت إلى أحداث عظام جسام، تجعل الرضيع يتكلم قبل الفطام. وأن المدينة غزة عاصمة الديار، عانت من جور الغزاة والطامعين الذين دمروها أكثر من مرة قبل أن يغادروها.. وأن الله قد أنزل عليها غضبة فخسفها أكثر من مرة، وطمرها تحت الأرض وذر أهلها غبارا حملته الريح إلى الجهات الأربع، وأن آثار غضبه لا تزال تظهر على صورة نوات تخبو في زمن، وتكون عواصف في زمن آخر.. ويقال في تفسير النوّات العجيبة التي تجتاح غزة وتفاجئ علماء الأرصاد الجوية وخبراء الزلازل والبراكين، وأن عظام الصالحين والطالحين في صراع دائم، فإذا تغلب الصالحون تهدأ النّوات، وتهطل على المدينة أمطار الرحمة بالخير الوفير، وإذا تغلب الطالحون يحل الجفاف والريح الصفراء، ويصوم الزرع والضرع وتكون المجاعة والفاقة والمرض.. وعلى ذلك يفسر البعض أعجوبة زيتون غزة الذي يطرح سنة طرحا وفيرا ثمرا وزيتا، ويصوم سنة فلا يعلق من أزهاره سوى النزر اليسير، وتعطي ثمرًا ممصوصًا من الشحم لا يكفي زينة زينة عروس كما تردد الماشطات.

ويتناقل أهالي غزة كابرا عن كابر، خبر زيتونة عتيقة شهدت غزوة الإسكندر ذو القرنين للديار الغزية، قد أعطت سرها للعالم الفقيه محي الدين "المرضي" بن الراضي بن الرضوان الذي كان يسكن تل جده لأبيه الشيخ رضوان، وأنه وضع بناء على السر نظريته عن الحزن والفرح في عالم النبات، فأمر والي غزة برفعه على خازوق عند مدخل المدينة الجنوبي في ضاحية العواميد.

وقيل إن الناس عبزوا عن حزنهم عليه بأن أطلقوا على مواليدهم الذكور اسم الراضي وعلى المواليد الإناث اسم الراضية، ولعل في ذلك تفسيرا لانتشار الاسمين في مصر وبلاد الشام؛ لأن الكثير من الناس فروا من الظلم وركبوا البحر شمالا وجنوبا، وتناسلوا عن أتقياء وأشقياء وقدموا تفسيرا ملتبسا حول تطابق أو تعارض الاسم مع الرسم، وما نتج عنه من جدل حول التناظر والمفارقة، أخذ من عافية الخلق ما أخذ، وهدر من الدم ما هدر.. وفتح بوابات البحث عن المدن المطمورة تحت غزة، وتناقل الناس الحكايات، منها حكاية المهندس المعماري الذي صمم القصور والمساجد والكنائس، والذي سأل إمام الجامع العمري الكبير عن تصميمات شبكة الصرف الصحي للجامع، ما أوقع الإمام في لجة العجز فخرج إلى الناس صائحا:

ـ أيها الناس ما رأيكم في سؤال النجاسة.....؟!

فتجمع الغوغاء من حول الإمام، وحاصروا المهندس وتناوبوا عليه قتلا.. وقيل إن فتى من مريدي الإمام كان شاهدا على ما دار

بين الرجل والشيخ، خلع عمامته وأخذ يعدو حتى سقط مغشيا عليه عند شجرة سدر صغيرة.. وأنه عندما أفاق ابتنى خصا عند الشجرة وأقام فيه، ويقال إن الفتى هو الصوفي محي الدين الخروبي، وأن السدرة هي سدرة الخروبي الموجود بقاياها حتى الآن..

وقد عرف عن الخروبي إعمال العقل قبل النقل، والاجتهاد قبل الإتباع، وعليهما أقام دعوته في أصول مقاومة الطارئين على الدنيا والدين، وعلى الغزاة الطامعين، وهو الذي طرح السؤال الذي ما زال مطروحا عند مصب مياه الصرف الصحي الخارجة من الجامع..؟!!

ومرت السنون، وتقلب على غزة ولاة وحكام، وتناسل العباد عن عشائر وأقوام حتى جاء من ادعى أنه من تلاميذ الخروبي، وأن مياه صرف الجامع تحملها قنوات سرية تنتهي تحت صخرة رابضة في كرمل حيفا.. ثم جاء من قال إن سردابا سريا يبدأ من الجامع ويصب في البحر مقابل شاطئ عسقلان.. وآخر المجتهدين خرج على الناس في زمن الفجيعة، وبشر بنظرية تقوم على أن مياه الجامع تصب في قنوات عمودية عميقة تنتهي إلى بئر يصب في بئرين على كل منها ملاك؛ الأول أبيض يضحك للماء الطاهر ويأخذه إلى بئره، والثاني أسود يضحك للماء النجس ويأخذه إلى بئره.. وعند سؤال المجتهد عن مصير الطاهر والنجس.. ضحك وقال:

ـ فلننتظر ما تتمخض عنه المعمعة..

وقبل أن يعرض الناس الأمر على قاضي القضاة اختفى المجتهد وتعددت في أخباره الروايات.. وتناقل الناس عن عجوز

عسقلانية تقيم مؤقتا منذ ستة عقـود فـي مخـيم الـشاطئ بغـزة، وأن زيتونتها وكذا زوجة ابنها قد صامتا عن الحمل عامين متتاليين، بعد قصف حصد عدداً كبيراً من الأرواح، وتؤكد أن كنتها حملت بعد أن شهقت عبير نوار الزيتونة، وأن حبة زيتون سوداء ظهرت وحمة على كتف الوليد الذي جاء صبيا مثل القمر، وكأنه خارج للتو من كم الملك شهريار..

حدث ذلك قبل أن يختلف الناس على الماء الأسود الذي انبثـق من الأرض إثر القصف الأخير الذي طال غزة..

وقبل أن تسكن العسقلانية مع حفيدها الجميل في عـب سـدرة الخروبي بعيدا عن مسارب الماء الأسود..

وجه القمر

في غزة كلما غاب القمر يظهر وجه الفتى في مكان ما يطـل على البحر، وفي كل مرة يتذكر الناس أن هذا المكان تعرض للقصف يوما وأصبح ذاكرة، وفي كل مرة يظهر الفتى يتغير اتجاه سهم الريح حاملا معه سرب من صغار النواس فقس عنها البيض للتو، وفي كل مرة تهبط النوارس على مائدة ماء البحر وتغني، فتهرع الجميلات خدورهن إلى حيث يقف الفتى ويفترشن الأرض، يستقبلن صغار النوارس ويزرعن الرمل المحروق بالزنابق.. ويصدحن بالغناء.. ويتوسلن الاستبضاع فيختفي الفتى غاضباً.. وتعود النساء إلى خدورهن يمارسن الانتظار..

وفي يوم سألت صبية تهيأت للطقس بعد آخر قصف:

ـــ متى يعود الفتى...؟!

رقصت العسقلانية على آخر أصبع تبقى لها بعد القصف، وأخذت الصبية إلى صدرها وقالت:

ـــ إرهفي السمع يا شقية..

وسمعت الصبية صوت شجار وصراخ وسجال.. قالت:

ـــ ما الذي أسمع يا عجوز...؟!

ـ بعض ما يجرى حوار بين تموز وآذار.

وقفت الصبية عند ذهول الفجيعة تنظر إلى وجه العجوز مرة وإلى البحر مرة.. فدخلت العسقلانية برزخ ما بين ذهاب العقل وحضور الجنون، صرخت الصبية:

ـ متى يعود الفتى...؟!

ـ عندما يثمر الحوار عن قرار.

ـ وإذا لم..

– تعلقي والجميلات من ضفائركن صيدا لجوارح الليل..

ترنيمة نادل الوقت

"إلى عراقية قذفتها بغداد الاقتتال إلى المنافي.. "

هل هي "العنقاء" أنتِ...؟!

وأنا المرجوم بالنزف "سيزيف" ...؟!!

هل تضيعنا المنافي بين ربيع وخريف...؟!

تتقاذفنا الشوارع في بلاد صرنا فيها الغرباء بين الأصدقاء..

فالأصدقاء ذرفوا دمعة الوجع على أوجاعنا مرة..

غزلوا من آهاتنا لحناً حزيناً غنوه بعض الوقت..

واكتفوا منا بمذاق أنغام الوداع..

هكذا شاءت الأقدار..

أن تخرجي كل مرة من قلب الاشتعال كاملة البهاء..

زهرة، تنثرين عبق القرنفل في مسام الوقت.. تخبئين دمعتك العزيزة.. هل تحمليني بين الحنايا في ثنايا الذاكرة...؟!

هل تطل عليكِ صورة وجهي كلما حضر على مراياك من غابوا وسكنوا الدمع في مقلتيكِ...؟!

لا تسكبيني دمعة من مقلتيك..

فأنا حملتكِ في خاصرتي، ورسمت في صدري بين الرئتين مدينتك التي أضحت عن متناول الحلم بعيدة

أرهف السمع لنزفكِ..

وأسجل دقات قلبي مع نقرات خطاك على الرمل في طرقات صدري صارت خطاك في صدري دروبا للوطن..

حدثي نادل الوقت عني.. واسأليه:

هل تستعيد المدائن ساكنيها...؟!

وكيف يفلت الوقت من لجام الخديعة، والدم قد سري في مسام الأرض إلى غور بعيد..؟!

وأي حليب يقدمه ضرع أرض لبذرة قرنفل تحلم بالحياة.. والأرض ملوثة بالضغينة..

آه يا سيدتي.. وجه مدينتي مثل وجهكِ مستباح..

هكذا هي المدن في الحلم جميلة

هل تعود مدينتي إلى عاداتها...؟!!!

كل صيف تتهيأ للزفاف.. تصبح عروسا، تصدح في جنباتها الأغاني والزغاريد المغمسة بالرغبة والحناء والفرح..

هذا الصباح، اصطحبت ذاكرتي، ومضينا نخب في الطرقات، نقرأ المواعيد في ذاكرة الشجر، والحجر، وإشارات الدروب..

هذا الصباح صرختُ على وجعي المُدمى بالغياب..

لم يبق في غزة بعد القصف سوى اسم المكان.. هل تعرى المكان من مفردات المكان.. ووجدتني في طرقاتها أمضي عاريا حتى من ذاكرتي.. لا زيتونة تمنحي ظلا..

لا جدار نقشت عليه رسمكِ يوما..

حتى ناصية الانتظار باتت ركام.. وصرخت من وجعي

ـ أين أنا...؟!

صرتُ المحاصر بسهام من قلبوا الوقت رأساً على عقب.. ورأيت رأس غزة معلقا على أسنة الرماح.. يتهموني بها:

ـ اصمت أيها الصابئ.. أنت السبب!!

ورأيت وجهك مصلوبا على وجه مدينتي.. صوتكِ يتردد مع حفيف الريح: لا عليكَ يا صاحبي، ارفع الصخرة من قاع السهل إلى أعلى الجبل، لا سهل، ولا نهر، ولا صحراء.. حتى الجبل خسفوه صار بعض رماد وتراب..

ـ ارفع الصخرة.. هذا قدر..

صارت الريح شياطين وقت.. شحذوا سيوفهم قصفوا رأسي.. صار عنقي نافورة دم.. حفر الدم مجراه وسال، ولا يزال.. ورأيتكِ تقفين على ضفة النهر، تهامسين نادل الوقت وتبوحين.

فأطلَ عليَّ من تحت ركام ناصية الانتظار..

سرب أطفال دفنوا يوم القصف تحت الركام..

* * *

أنها العنقاء أنتِ.. وأنا المرجوم بالنزف سيزيف..

لن تضيعنا المنافي.. لن تضيعنا الطرقات بين ربيع وخريف..

ربما جئنا من الأسطورة طيفا.. لكننا يا صاحبتي انطلقنا من رحم الحقيقة.. والحقيقة؛ أنت الأميرة، تنتظر العبور إلى بلاد الرافدين، وأنا المشبوح على صليب عذاباتي.. تبكيني النساء عند بوابات القدس العتيقة.. لن يخادعنا الليل.. قومي، وانهضي من رمادك معطرة بروح الدجلتين، واطلبيني أمنية عند أعتاب أسياد المرقدين.. أني تعودت على صخرتي، ولكن ليس من أجل الصعود أو الهبوط.. ولكن للوصول إلى مدينة نحن فيها..

هل نسيتِ أنك الساكنة في صدري.. ...؟!

أنتِ الشوارع والدروب..

أنتِ امرأة مدينة..

أنتِ سيدة الحضور..

---

* كتب هذا الفصل بعد الحرب الأخيرة على غزة ٢٠٠٨

السيرة الذاتية

** الاسم: إبراهيم عبد الجبار الزنط

* اسم الشهرة: غريب عسقلاني

* تاريخ ومكان الميلاد: ١٩٤٨/٤/٤ فلسطين/ عسقلان

* شغل منصب مدير الابداع الأدبي/ وزارة الثقافة الفلسطينية/ غزة حتى عام ٢٠٠٧

* بكالوريس الاقتصاد جامعة الاسكندرية ١٩٦٩

* يكتب الرواية والقصة القصيرة والمقالة الأدبية.

* ترجمت بعض قصصه القصيرة لعدة لغات

* حاز جائزة القصة الفصيرة من جامعة بيت لحم١٩٧٧، وجائزة القصة القصرة من اتحاد كتاب فلسطين

** نشرت له حتى الآن١٠ روايات، ٦ مجموعات قصصية

* من إصدارات الكاتب:

* أولاد مزيونة ــ رواية ــ شمس للنشر ٢٠٠٩

* ثلاثية شمس ــ رواية ــ الدار للنشر ٢٠٠٩

*الأميرة والنورس/ نصوص مشتركة مع هناء القاضي شمس ٢٠٠٩

* يوميات الحرب والموت ــ رواية ــ سندباد للنشر بالقاهرة ٢٠١٠

** للتواصل مع الكاتب: asklani47@hotmail.com

قائمة إصدارات سندباد للنشر

١ ــ بالوظة ــ فؤاد حسين ــ مصر ــ قصص
٢ ــ المايسترو ــ محمود ماهر زيدان ــ مصر ــ قصص
٣ ــ الرقص تحت المطر ــ حسن البقالي ــ المغرب ــ قصص
٤ ــ الولد الذي تخطى السور ــ جهاد الرملي ــ مصر ــ قصص
٥ ــ كأس بيرة ــ سهيلة بورزق ــ الجزائر/ أمريكا ــ قصص
٦ ــ رجل مجنون، هل فعلا أحبه؟! ــ فادية إبراهيم ــ مصر ــ قصص
٧ــ للعشق وجه آخر ــ فوزية دياب ــ مصر ــ شعر
٨ ــ مطعم اللحم الآدمي، يرحب بكم/ الحسن بنمونة/ المغرب/ قصص
٩ ــ طوفان ــ إسماعيل البويحياوى ــ المغرب ــ قصص
١٠ ــ شاطئ الحنين ــ عزة دياب ــ مصر ــ قصص
١١ ــ دعوة للحب ــ فوزية دياب ــ مصر ــ شعر
١٢ ــ ترانيم الغروب ــ فوزية دياب ــ مصر ــ شعر
١٣ ــ العزف على أوتار الألم ــ فوزية دياب ــ مصر ــ شعر
١٤ ــ درة الشرق ــ فوزية دياب ــ مصر ــ شعر
١٥ ــ بأسنة الرماح ــ شوقي مسلمانى ــ لبنان/ أستراليا ــ قصص
١٦ ــ النقش بالحناء ــ حنان كوتاري ــ المغرب ــ قصص
١٧ ــ إلي رجل قد يأتي ــ روزمين الصياد ــ السودان ــ شعر
١٨ ــ عشيقة عرابي ــ محمد السنباطى ــ مصر ــ رواية
١٩ ــ مقهى قدوس حنين ــ رضا عودة ــ مصر ــ رواية
٢٠ ــ قواعد الميراث ــ إبراهيم نسيم ــ مصر ــ دراسة
٢١ ــ مرايا الغروب ــ فوزية دياب ــ مصر ــ شعر

٢٢ ــ مسافرة للصمت ــ فوزية دياب ــ مصر ــ شعر

٢٣ ــ زينب وأخواتها ــ فاطمة فوزي ــ مصر ــ قصص

٢٤ ــ أرض الميت ــ هشام آدم ــ السودان ــ رواية

٢٥ ــ أنهار لا تعرف الخوف ــ جمال مرسي ــ مصر ــ شعر

٢٦ ــ اعترافات الورد والشوك ــ إيهاب سلام ــ مصر ــ رواية

٢٧ ــ أجنحة صغيرة ــ سمية البوغافرية ــ المغرب ــ قصص

٢٨ ــ إعصار الحب ــ حمدي الهواري ــ مصر ــ شعر

٢٩ ــ أزمنة الرحيل ــ صلاح خليفة ــ السودان/ أمريكا ــ شعر

٣٠ ــ بنات الخرطوم ــ سارة منصور ــ السودان/ أمريكا ــ قصص

٣١ ــ نور في بداية النفق ــ لمي منير ــ العراق ــ قصص

٣٢ ــ التي في خاطري ــ حسن حجازي ــ مصر ــ شعر

٣٣ ــ إفلاس دولت ــ أماني الشرقاوي ــ مصر ــ قصص

٣٤ ــ قراءة في أبجديات مغتربة ــ صالح الهنيدى ــ السعودية ــ شعر

٣٥ ــ وطن اسمه آفيفان/ بدل رفو المزورى/ كودرستان العراق/ شعر

٣٦ ــ ترانيم للشوق والعذاب ــ أحمد فتحي ــ مصر ــ شعر

٣٧ ــ عيون الفجر الزرقاء ــ إدريس الجرماطى ــ المغرب ــ رواية

٣٨ ــ حبيبتي تفتح بساتينها ــ محمود قحطان ــ اليمن ــ شعر

٣٩ ــ بيت فنانة ــ صفاء عبد المنعم ــ رواية ــ مصر

٤٠ــ اللجوء السياسي..الملف الأسود/ سارة منصور/ قصص/ السودان

٤١ ــ مِعْرَاجٌ لِسَمَاءٍ تَحْتَرِقْ ــ تُقى المُرسِي ــ مصر ــ شعر

٤٢ ــ أسرار الليل ــ إدوارد فيليبس ــ مصر/ أمريكا ــ قصص

٤٣ــ ليلة الحب الأخيرة ــ محمد الكاشف ــ مصر ــ قصص

٤٤ــ أمريكاني من حي الزبالين/ إدوارد فيليبس/ مصر/ أمريكا ــ مسرحية

٤٥ــ الطافش ــ حسن الجوخ ــ مصر ــ مجموعة قصصية

٤٦ـ طُلي ثريات البشارة ـ وحيد عبد الخالق راغب ـ مصر ـ شعر

٤٧ـ عُصنعُص ـ فرج محمود ـ مصر ـ رواية

٤٨ـ الآباء ليسوا ملائكة ـ زهرة جقريف ـ الجزائرـ رواية

٤٩ـ مثل فيل يبدو عن بعد/ حسن البقالي/ المغرب/ قصص قصيرة جدًا

٥٠ـ فساتين النشوة ـ أماني الشرقاوي ـ مصر ـ رواية

٥١ـ القاغيش ـ محمد البلبال بوغنيم ـ المغرب ـ قصص

٥٢ـ أستميحكِ وردًا ـ سامي العامري ـ العراق/ ألمانيا ـ شعر

٥٣ـ تأملات قزح ـ عبد ربه أسليم ـ غزة/ فلسطين ـ شعر

٥٤ـ البحث عن نيرمانا بأصابع ذكية ـ شريف الشافعى ـ شعر ـ مصر

٥٥ـ أيام الراقصة صوفى ـ محمود ماهر زيدان ـ رواية ـ مصر

٥٦ ـ اختفاء مريم ـ داليا محمد رضا ـ رواية ـ مصر

٥٧ـ نقش على جدار الذكريات ـ ماجد الملاذى ـ شعر ـ سورية

٥٨ـ خيرى عبد الجواد..القابض على الحكايات/ دراسة/ شوقي عبد الحميد

٥٩ـ وجدان وأشلاء دمى ـ خالد أقلعى ـ قصص ـ المغرب

٦٠ـ الموت والميلاد ـ د. نزار الجبورى ـ شعر ـ العراق

٦١ـ فكرة واحدة صالحة للدور الأرضى/ عواض العصيمى/ قصص/ السعودية

٦٢ـ قوارب بيضاء ـ عبد الجبار خمران ـ قصص ـ المغرب/ فرنسا

٦٣ـ النهر الأول قبل الميلاد ـ سامى العامرى ـ شعر ـ العراق/ ألمانيا

٦٤ـ زفرات الضياع ـ سامر مسعود ـ قصص ـ فلسطين / أمريكا

٦٥ـ المواطن الفاسد ـ عبد الرحمن المولّد ـ قصص ـ اليمن

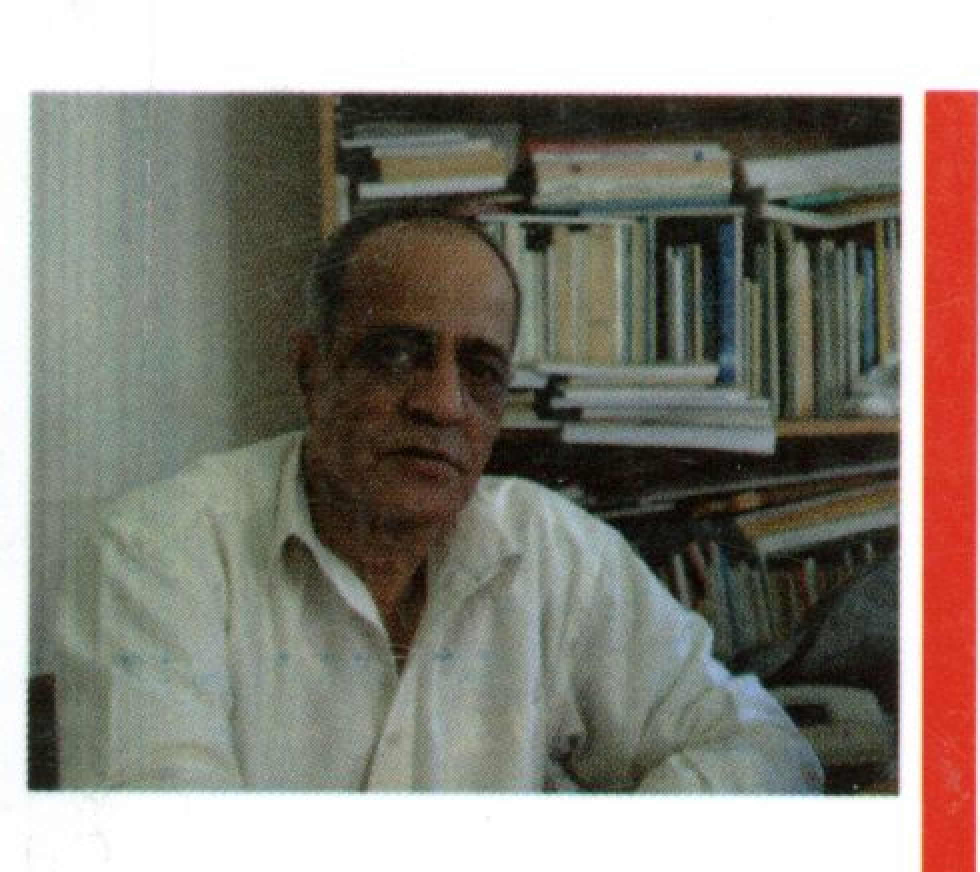
٦٦ـ يوميات الحرب والموت..غزة تحترق/ غريب عسقلانى/ غزة / فلسطين

٦٧ـ رسائل الندى ـ ندى الرشيد ـ شعر ـ السعودية

٦٨ـ امرأة التابو ـ سعد الحجى ـ شعر ـ العراق

٦٩ـ المكيدة الكبرى ـ أسامة أبو خشبة ـ مسرحية ـ مصر

٧٠ـ الحب الممنوع ـ فتحى أمين ـ شعر غنائي ـ مصر



هذا الكتاب

هذه نصوص سردية قصيرة كتبت عن سنوات الانتفاضة الأولى، حين كان للفلسطينيين حلم، فيها تشم رائحة ورد الحلم، وأزهارًا كانت براعمها تتهيأ للتفتح. يومها كان غريب عسقلاني وأمثاله يعزفون الموسيقى، تشجيعًا لهذا التفتح الحالم ودعمًا، وكان ذلك يكلفهم غاليًا. اليوم أشك أن تصدر في فلسطين نصوص كثيرة بهذه الروعة، ربما تصدر بعض منها؛ ولكن تكرار ذلك على نطاق لافت ذلك بات أمرًا يشبه المستحيل، فالكتابة غناء، والغناء سعادة، أو تهيؤٌ لها، ومن الآن في فلسطين متهيئ للسعادة!.

يريد غريب أن يقول: قد نضطر لمقاتلة العدو بالدم والكف والألم والصبر، وقد نستطيع هزيمته بالإرادة؛ لكننا سنفقد إنسانيتنا إذا لم ننحنِ باحترام أمام ضعف الطفل وجمال المرأة ورقة الوردة، حتى لو كانت في حديقة العدو. الطبيب اليهودي غاضب من فعل الجنود المتوحشين وهم أبناء جلدته! ألا يعلمنا هذا شيئًا...؟!

ألا يعلمنا هذا أن الجمال قيمة عظمى قائمة بذاتها ومتسامية على المنفعة! هذا ما يريد أن يقرره الفن، ومعه في ذلك الأدب الملتزم، الأدب الحقيقي، لا الأدب الذي يعتاش على شعار السياسة الزاعقة.

د. خضر محجز

ناقد وأكاديمى فلسطينى



